الحوار والجدال في القرآن الكريم

تأليف

الشيخ خلف محمد الحسيني

الكتاب: الحوار والجدال في القرآن الكريم

الكاتب: الشيخ خلف محمد الحسيني

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

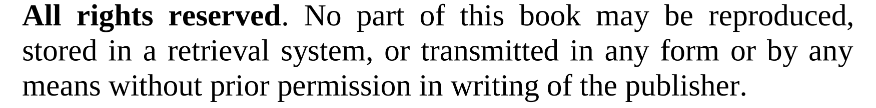
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com



دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الحسيني ، الشيخ خلف محمد

الحوار والجدال في القرآن الكريم / الشيخ خلف محمد الحسيني

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٢ – ٧٨٢ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٠٦٦٦ / ٢٠١٨

الحوار والجدال في القرآن الكريم





مقدمة

لقد أطلق الإسلام العقول من أغلال الوثنية، وحطم الفلسفة الإغريقية، ومنح المسلمين حرية التفكير، وحرية العقيدة، فكان المسلمون الأولون هم قادة الأرض، علمياً وفكرياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وخلقياً بحافز من تعاليم القرآن، وآدابه، وتشريعاته، مع وقوفهم على حضارة غيرهم من الأمم، واقتباسهم منها ما ينفعهم كحضارة الفرس، والروم، والهند، والإغريق.

ومن أظهر أشراط الحرية، وأقوم سبلها، وأصلحها طريقة الحوار والجدال بالتي هي أحسن، لأن الحوار الصحيح لا يتحقق إلا بمناقشة الآراء على بساط الحرية والصراحة اللتين هما أقوم سبيل لحل المعضلات وتوضيح المبهمات، وبلورة الآراء، وتوحيدها وتقويتها.

ولن يتم اقتصاد سليم بأيد أمينة، ولا تقوم سياسة خالصة لله حكيمة، ولا يبني إنسان بناء قوياً صالحاً، ولا مجتمع مماسك، متعاون إلا على أساس متين من الدين، ثم الدين، ثم الدين، فإن المبادىءالدينية التي تنفذ إلى القلوب، وتؤمن بها النفوس هي التي تعصم المرء من فعل المنكرات، كالسرقة والاختلاس، وقتل النفس والزنى، وهي التي تحضه على العمل، ثم إتقان

العمل والإخلاص لله وللوطن، وهي التي تكفه عن الغش والتزوير واحتكار الأقوات وغيرها مما حرمه الدين، وتوعد فاعله بالحسران والعذاب الأليم، والقدوة الحسنة والمثل الأعلى في الخلق العظيم هي النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان يستعيذ من الكسل، ويحب العمل، وقضى حياته كلها في الجهاد، والدعوة والإرشاد، بالتي هي أحسن إلا من ظلم وتجاوز الحدود وهدد المجتمع بالفساد والإشاعات الضارة، والإجاف في المدن أو القرى، ونقض العهد والغدر من الأعداء، فأولئك تجب مقاومتهم وتأديبهم ومحاربهم، فإن انهوا فإن الله غفور رحيم، ولا عدوان إلا على الظالمين.

ولما كان للحوار والجدار بالتى هي أحسن، الأثر القوي في بناء الإنسان وتقوية شخصيته، وحل مشكلاته فقد اتخذته الأمم وسيلة للتفاهم بينها، وأثرته على سياسة العنف، وفضلته على لغة الحرب والدمار، ففي هذه الأيام يدور حوار بين الدول العربية والدول الأوروبية للوصول إلى التعاون السياسي والاقتصادي. وكذلك يُجرى حوار بين الدول المنتجة للبترول (الأوبيك) والدول المستهلكة له، ويجزى حوار بين الدول العربية والدول الإفريقية للتعاون الاقتصادي وتنمية الثروات التي تغلها بلادها، والحوار بين مصر وألمانيا الاتحادية وبينها وبين فرنسا، والحوار الذي دار بين طبقات الشعب المصري في وثيقة أكتوبر سنة ١٩٧٤[1] وكلها تدور حول التعاون السياسي والاقتصادي والعسكري، ولكن هناك حواراً صبغته دينية، للتقريب

---

(1) هي التي أطلق عليها ورقة أكتوبر، وضعها الرئيس أنور السادات بعد حرب العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ والسادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م وضمنها عشر نقاط تصور خطة المرحلة التالية لهذه الحرب التي انتصرت فيها مصر وسورية وفلسطين ومن والأهم من العرب على إسرائيل ثم عرضت على الشعب فأقرها بعد حوار شامل، ثم أخذت الحكومة في تنفيذ بنودها.

وللتعرف على وجهات النظر بين المسلمين والمسيحيين انعقد أول مؤتمر له في قرطبة بأسبانيا سنة ١٩٧٤م وسيكرر انعقاده حسب الخطة المرسومة.

ولعل لغة الحوار بين الدول تحل محل لغة الحرب والدمار التي لم تحل المشكلات، ولم تفض المنازعات ولعل العالم يستجيب لما دعت إليه جميع الأديان كما قال القرآن ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

وكذلك دعا الإنجيل إلى السلام والمحبة والوئام فقال: المجد لله في الأعالي. وفي القلوب المحبة، وعلى الأرض السلام.

وللحوار أساليب كثيرة أفضلها وأشدها تأثيراً في النفوس وروعة في الآداب والسلوك: حوار القرآن العظيم، وهو نوعان: حوار في الحياة الدنيا، وحوار في الحياة الآخرة، ولا عجب فالقرآن يشتمل على ما يقع في عالم الغيب والشهادة؛ لأنه هو الكتاب الكامل الشامل المهيمن على ما سبقه من الكتب السماوية، لذلك أفردت لكل حوار منهما باباً مستقلاً يحتوي على نماذج من الحوار، وذيلت بعض النماذج بتعقيب أو استنباط من الحوار، وخصصت باباً ثالثاً بالأسئلة القرآنية وأجوبتها؛ لأنها نوع من الحوار وأعمار الفكر، ليقتبس من أسلوبها السائل والمسئول، سواء كان معلماً أو متعلماً أو غيرهما. ثم ألحقت به باباً رابعاً فيما بتوقع إثارته من أسئلة في بعض الآيات القرآنية، وجعلت الخاتمة تحقيقاً للفصل بين الخلاف في تفسير آيات بني إسرائيل التي أنبأت بإفسادهم في الأرض مرتين، وصغت بعض التحقيق في

---

(1) يعنى إذا دفعت السيئة بأحسن منها صار عدوك مثل الصديق الشفيق.

أسلوب حواري بيني وبين من يفسر الآية على أساس شبهة في فهم بعض كلماتها، إظهاراً للحق وإزاحة للشبهة.

هذا وإن من يقرأ الحوار القرآني والأسئلة القرآنية وأجوبتها ليقف معجباً ومشدوها من حرية الرأي بين المتحاورين والمتحاجين، والسائلين، والمسئولين في حدود الإقناع والإبداع إلا من كان معانداً أو متعنتاً أو متحدباً أو ذا غرض شخصي متطرف ومنحرف عن إجادة الحق أو متأثراً بمذهب خبيث من المذاهب الهدامة التي تهدم بنيان النفوس وتقوض أركان الشرائع السماوية تحت ستار الحرية الشخصية أو الدينية المزيفة، فهؤلاء قد فسقوا وتجاوزوا حدود الحرية الديمية الصحيحة.

وأخشى ما أخشاه أن تزحف طلائع الإلحاد إلى قلوب طلاب العلم من أبنائنا، فتحتلها ثم يتعذر على المربين والواعظين إجلاؤها، ويصعب على المصلحين علاجها.

فياأيها الشباب إياكم والمذاهب المادية الهدامة التي تحملها رياح المدنية الإباحية كما تحمل الجراثيم إلى الجسم السليم، فلا تلبث أن تفتك به، وتقضي عليه، وعليكم بالقرآن فاتبعوه فإن فيه خير ما قبلكم ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم، ﴿وَالأَرْض ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ* وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[1].

المؤلف

([1]) ذات الرجع: أي ذات المطر ترجعه كل حين، وذات الصدع أي ذات النبات الذي يصدع الأرض. أي: يشقها، أنه لقول فصل أي- أن القرآن لقول فصل بين الحق والباطل أي جد كله وليس بالهزل.

الباب الأول

هل هناك فرق بين الحوار والجدال؟

الحوار والجدال: يشتركان في أن كلا منهما مصدر للفعل حاور حواراً ومحاورة، والفعل جادل جدالاً ومجادلة.

ومعنى الحوار أو المحاورة: مراجعة الكلام وتبادل الآراء للوصول إلى الحقيقة.

وتحاوروا، وأحار الرجل الجواب رده، وما أحاره ما رده، وهو حسن الحوار، وما أحار جواباً، أي ما رجع.(1)

ومنه في سورة الانشقاق "إنه ظن أن لن يحور" أي أن الكافر ظن في حياته الدنيا أن لن يرجع إلى ربه بعد موته بالبعث ليجازيه على أعماله.

ومنه قول الأخطل:

هلا ربعت فتسأل الأطلالا ولقد سألت فما أحرن سؤالاً

(1) في أساس البلاغة، والقاموس المحيط، والمصباح المنير.

أما الجدال أو المجادلة: فأصله المخاصمة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب، ولكنه استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة، لظهور أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق، وإلا فهو مذموم.

فالجدال والحوار يشتركان في إيضاح الحق والصواب إذا أريد بالجدال معرفة الصواب، ويفترقان في أن الجدال السيىء يطمس معالم الحق، ويسعى لإخفائه، ويعمد إلى مناصرة الباطل وأوليائه، كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾[1].

ولما كان الجدال كثيراً ما يتجاوز تبادل الآراء إلى احتدام الخصام، وإلى التقاطع بين الأنام، فقد أمر القرآن المسلمين بأن يجادلوا أهل الكتاب بالتي هي أحسن، فقال تعالى في سورة العنكبوت:

﴿وَلاَتُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَأَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

وقال تعالى في سورة النحل:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

---

(1) ليدحضوا: أي ليبطلوا.

١ـ نموذج للحوار بين كافر غني ومؤمن فقير:

قال تعالى في سورة الكهف:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً* كِلْتَا الجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَاوَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً* وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً* وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً* وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً* قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً* لَكِنَّاْ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاأُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً* وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً* فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً* أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً* وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِي خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾.

لقد جرى هذا الحوار القرآني بين رجلين: أحدهما كافر غني والآخر مؤمن فقير[١] على النحو التالي:

---

(١) روى أن الرجلين أخوان من بني إسرائيل، المؤمن اسمه يهوذا والكافر اسمه فطروس، ؟؟؟ البيضاوي.

بدأ الكافر حواره مع صاحبه المؤمن بالافتخار عليه بالولد والحشم والأعوان، فقال لصاحبه: (أنا أكثر منك مالاً وأغر نفراً) لأنه كان له جنتان زاخرتان بالفاكهة يحف بهما نخل كثير وبينهما زرع، وكلتا الجنتين أعطت أكلها أي تمرها الشهي كالأعناب وغيرها من أنواع الفاكهة المتوافرة التي لم تنقص منهما شيئاً بسبب الماء الجاري بينهما ليسقي زرعهما دائماً، وكان لهذا الكافر غير الجنتين، ثمر أي مال ثمره وكثره ونماه، وكان له أولاد وأعوان، فأبطره الغنى، وأعماه عن تقلبات الزمان، وكوارث الأيام، وأن كل نعيم لا محالة زائل، وأن دوام الحال من المحال، يحسب أن ماله أخلده، وأن جنته لن تفنى أبداً، (ودخل جنته وهو ظالم لنفسه) أي ضار لها بعجبه وكبريائه وغروره (قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً) لطول أمله وغفلته وإعتراف بإمهال الله تعالى له حتى أنكر قيام الساعة، وأعلن إنكاره قائلاً: (وما أظن الساعة قائمة) ثم قال لصاحبه (ولئن رددت إلى ربي) يوم البعث كما زعمت، لأجدن خيراً من جنتي منقلباً أي مرجعاً وعاقبة، لأن الله الذي أكرمني في الدنيا سوف يكرمني في الآخرة بجنة خالدة خير من جنة فانية.

فراجعه صاحبه المؤمن وبدأ محاورته بتوجيهه إلى الصواب وإرشاده إلى الحق وهو الإيمان بالله في أسلوب إنكاري وتعجبي (قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة، ثم سواك رجلاً)؟ وتشتمل محاورة المؤمن على برهان حسي وهو: خلق الله له من تراب ثم من نطفة، وهذه النطفة حصلت من الغذاء، والغذاء حاصل من التراب، كما خلق آدم من تراب، ولعل في ذكر التراب تنبهاً وردعاً لمن

أنكر أو استبعد إعادة الموتى؛ أحياء يوم البعث بعد أن صاروا تراباً، لأن إعادة الأشياء أهون وأيسر من البدء على غير مثال في العادة، ثم وجه نظر الكافر إلى أن ما يدعوه إليه من التوحيد قد رضيه لنفسه، واعتقده اعتقاداً جازماً فقال: (قلنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً) ووجه نظره كذلك إلى ما ينبغي أن يقوله إذا دخل جنته بدل التفاخر بها والاغترار ببهجتها وكثرة ثمارها فقال له: هلا إذا دخلت جنتك قلت هي ما شاء الله وقدره، لا ما شاء العبد ودبره (لا قوة إلا بالله)؟!

ثم راجع افتخاره وغروره بماله وولده وتوقع أن يصيبه في جنته صواعق من السماء فنحرقها، أو يفور ماؤها في باطن الأرض فيجف زرعها وتهلك ثمارها كدأب كل كافر بطر بنعمة ربه فقال له: (إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء) أي صواعق (فتصبح صعيداً زلقاً) أي أرضاً ملساء يزلق عليها بسبب استئصال أشجارها وزرعها (أو يصبح ماؤها غوراً) في باطن الأرض فلن تستطيع إعادته إلى الجنة. فتبيد جنتك وتندم على ما أنفقت فيها ولن ينفعك الندم بعد وقوع الكارثة.

وفجأة حدث ما توقعه المؤمن لصاحب الجنة (وأحيط بثمره) أي أهلك جميع ثمره من جنة وأموال (فأصبح يقلب كفيه) ندماً وحسرة (على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) أي ساقطة عروشها العليا على الأرض ويتمنى (ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً) لأنه أيقن أن

إبته في جنته وما له كانت بسبب شركه، ولن ينفع التمني بعد فوات الأوان، ولا ساعة مندم.

استنباط من خلال هذا الحوار:

يستنبط من هذه القصة أن افتخار الغني بغناه، واغتراره بدنياه، وبعده عن مولاه، قد يكون من أسباب ما يصيبه من كوارث وجوائح مفاجئة له تهلك ثروته، وتأتي على ماله كله، فلا تبقى ولا تذر، ويؤيد ذلك ما يشعر به قوله تعالى في سورة النحل: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

ويستنبط أيضاً أن غنى المرء ليس دليلاً على إكرام الله له، فقد يكون ابتلاء له وامتحاناً هل ينفقه فيما يرضى الله ويصلح المجتمع أو يبذره في شهواته، أو يبخل به على الفقراء من ذوي القربى واليتامى والمساكين، وقد يكون الغني فتنة أو استدراجاً وإمهالاً من الله للغني لا إهمالاً، كحال الكافر الغني في هذه القصة.

ويستنبط كذلك أن الفقر ليس دليلاً على إهانة الله للفقير، فقد يكون اختباراً ليمحص قلبه ويطهره للإخلاص لله، وليظهر قوة صبره واحتماله، وليبلوه أيشكر أم يكفر، كما يشير بذلك قوله تعالى في سورة الفجر: (فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ) أي فيظن أن الله قد أكرمه بسعة الرزق فيطغي أن رآه استغنى ويفسد في

الأرض ويقول ربي أكرمني ولن يعاقبني ولن يهينني وهذا ظن فاسد كظن الكافر صاحب الجنتين الذي قال حين دخل جنته وغرته ثمارها وبهجتها ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً* وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾ وقد جهل أن أكرم الناس عند الله أتقاهم وليس هو أغناهم، ولو كانت الكرامة عند الله في الدنيا بالغنى وكثرة المال لكان الأنبياء– وهم أكرم العباد عند الله– أغنى الناس وأكثرهم أموالاً كما قال الشاعر الحكيم:

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن إذا لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبعت فيها بطون البهائم

٢ـ نموذج من الجدال بين موسى وفرعون وفيه إثبات لوجود الله:

أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه بأرض مصر:

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى* اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى* فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى* وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى* فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى* فَكَذَّبَ وَعَصَى* ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى* فَحَشَرَ فَنَادَى* فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى* فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾.

هذه قصة موسي عليه السلام وفرعون في سورة النازعات وإعجاز بالقياس إلى قصصه في سور الأعراف، وطه، والشعراء، والقصص،

والزخرف. وقد اختيرت قصة الشعراء لاشتمالها على الجدال الكثير الذي دار بين موسى وفرعون في خمس عشرة آية، وتضمن في أثنائه إثبات وجود الله الذي كان ينكره فرعون كما يتبين من الجدال التالي:

لما امر الله جل جلاله موسي عليه السلام بالذهاب إلى فرعون وقومه ليدعوه إلى عبادة الله وتوحيده، وليخلص بني إسرائيل من ظلمه وتعذيبه، سأل موسى ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليشد عضده، ويقوى سلطانه، فاستجاب له ربه، وقال: "قد أوتيت سؤالك يا موسى" "اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا ثنيا في ذكري إذهبا إلى فرعون إنه طغى".

وقال تعالى في سورة الشعراء:

فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون، فأتيا فرعون فقال: إنا رسول رب العالمين، أن أرسل معنا بني إسرائيل، قال: ألا نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين[١] وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين. قال: فعلتها إذا وأنا من الضالين. ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين: وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بني إسرائيل، قال فرعون: وما رب العالمين، قال: رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، قال لمن حوله: ألا تستمعون، قال: ربكم ورب آبائكم الأولين، قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون، قال: لئن اتخذت إلهاً

---

(١) قيل مكث موسى بينهم ثلاثين سنة.

غيري لجعلناك من المحسونين، قال: أولو جئتك بشيء مبين، قال: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين".

لقد ذهب موسى وهارون إلى فرعون الظالم وهما رابطاً مطمئناً القلب، لأن الله طمأنهما بقوله تعالى في سورة طه: "لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى" وكيف يخاف اثنان الله ثالثهما من عبد الله مهما بلغ من الظلم والطغيان؟ لقد ذهبا إلى فرعون وجرى بينهم الحوار التالي:

قال موسى وهارون لفرعون: إنا رسولاً رب العالمين. فأرسل معنا بني إسرائيل إلى أرض غير أرض مصر (الشام) ولا تعذبهم بصنوف العذاب المختلفة.

قال فرعون لموسى مظهراً امتنانه عليه: ألم نربك فينا وبيننا طفلاً صغيراً ومكثت معنا سنين مكر ما منعما، هل تنكر نعمتنا عليك؟ ومع ذلك فقد قتلت أحد رعيتي وأنت من الكافرين بنعمتي، قال موسى: فعلت فعلتي حينئذ وأنا من الضالين عما يئول إليه وكزى للقتيل، لأني لم أتعمد قتله، وإنما أردت فض النزاع بينه وبين خصمه. وكانت هذه الفعلة قبل نبؤتي، "ففررت منكم لما خفتكم، فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين" وفي هذا القول رد هاديء مقنع على فرعون الذي أنكر رسالة موسي وأنبه على قتله القبطي من رعيته، وكذلك رد عليه امتنانه بتربيته منذ طفولته بقوله: "وتلك نعمة تمنتها على أن عبدت بني إسرائيل" كأنه

يقول: إن النعمة التى تمننتها بها على سببها تعبيدك بني إسرائيل وتعذيبهم وقتل أبنائهم، وهو الذي دفعني إليك وأوقعني في تربيتك لأخلصهم من عذابك، فمنتك هذه هي في الحقيقة نقمة لا نعمة.

إثبات وجود الله لفرعون وقومه:

ولما سمع فرعون جواب موسى على اعتراضه عليه وعدم التسليم لامتنانه وتوبيخه، حول جداله معه إلى الاعتراض على دعواه، فبدأ بالاستفهام عن حقيقة رب العالمين الذي قال له: إن رسول من عنده:

قال فرعون: "وما رب العالمين؟!"

فأجابه موسى بأظهر آثاره المحسة وهيالسموات والأرض وما بينهما وهي أجرام عظيمة متعددة ومتركبة ومتغيرة، ولابد من صانع مدبر تدركه العقول ولا تدركه الأبصار "قال: رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين" خلقها وبديع صنعها.

فلما سمع فرعون هذا الجواب بالتفت إلى الملأ حوله وقال لهم مستعجباً أو ساخراً: "ألا تسمعون" إن جوابه يخالف سؤاليسألته عن حقيقة ربه وذاته فأجابني بما يزعم أنه رب السموات والأرض وما بينهما، وما السموات والأرض إلا موجودتان بطبيعهما، ومتحركتان بذاتهما.

ولما رأى موسى تعجب فرعون من إجابته بسبب نسبة الألوهية إلى غيره، لأنه كان يدعي الألوهية، أجابه إجابة أخرى هي أقرب إلى التأمل.

وأوضح للناظر "قال: ربكم ورب آبائكم الأولين" يعني هو الذي خلقكم وخلق آباءكم الأقدمين وهو الذى أماتهم وسوف يميتكم مثلهم، فهل أنت تستطيع مثل ذلك يا فرعون؟ قال فرعون لمن حوله: "إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون" لأنه يجبني بخلاف ما سألته.

ثم استمر موسى في إجاباته موجهاً أنظار فرعون وقومه إلى النظر والتفكر فيما يشاهدونه كل يوم في مشرق الشمس وغروبها، ومن الذي يأتي بالشمس من المشرق كل يوم ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى تبلغ مغربها على نظام ثابت، ووجوه نافعة تنتظم بها حياة المخلوقات؟ "قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنت تعقلون".

ولما افحم فرعون بالحجة، ولم يجد له حجة عاد إلى طبعه ودأبه، وعناده وكبريائه وعدل عن الحاجة إلى التهديد والعنف، وأقسم على موسى ليجعلنه من المسجونين إن اتخذ إلهاً غيره "قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين".

قال له موسى: أتسجنني ولو جئتك بشيء مبين يبين صدق دعواى؟ يعني المعجزة الدالة على وجود الصانع. قال فرعون: "فأت به إن كنت من الصادقين" في دعواك،

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ* وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هي بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ)

ولما بهره سلطان المعجزة لجأ إلى الملأ حوله ليستعين بهم على إبطال معجزة موسى التي شغلته عن دعوى الألوهية وقال لهم: "إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون"؟

فأشاروا عليه بأن يستبقي موسى وأخاه، ثم يجمع كل سحار عليم، ثم يتفقون مع موسى على يوم معين يتبارون فيه لعلهم يغلبون، فاجتمعوا في وقت الضحى من يوم معين هو يوم الزينة، وألقوا حبالهم وعصيهم، وخيل إلى الناظرين أنها حيات تسعى، فألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع هذه الحيات التي سحروها كعادتهم. وحينما رأى السحرة عصا فرعون تلتهم حبالهم وعصيهم بهتوا جميعاً، وأيقنوا أن مثله لا يأتي بالسحر، ولم يتمالكوا أنفسهم، فخروا ساجدين، وقالوا: "آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون"، ولكن فرعون ظل على عناده واستبداده برأيه، وخالف مستشاريه وسحرته، فانقلب ضدهم، وأظهر عداوتهم، وتوعدهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليب أجسامهم في جذوع النخل، فلم تأبهوا له، ولم يبالوا به، وقالوا: لا ضرر علينا فيما فعلنا، لأننا راجعون إلى ربنا "إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين".

كلمة حق عند سلطان جائر:

لم يكتف فرعون بتهديد موسى بالسجن بل تمادى في طغيانه وأراد التخلص من موسبالقتل، إذ قال: "ذرونى أقتل موسى وليدع ربه، إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد"، وقوله (ذرونى) يشعر بأن قومه كانوا في مشادة معه وتجاذب لمنعه من قتل موسي، ويؤيد ذلك أن رجلاً من آل فرعون[1] قد تصدى له وأعلن احتجاجه عليه، وقال كلمة الحق عنده مدافعاً عن موسى، وقدم ثلاث حجج منطقية وعقلية في أسلوب رائع، وعرض جذاب مقنع، فقد قال في الاحتجاج الأول: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم"؟!

فهو ينكر عليهم محاولة قتله، وتفادى في إنكاره مخاطبة فرعون وحده حتى لا يشتد غضبه، وكأنه قال: كيف تقتلون رجلاً لم يرتكب ذنباً بل أقر أمامكم بأن الله وحده هو ربه وقد جاءكم بالمعجزات المؤيدة لصدق دعواه من ربكم الذى لا رب غيره؟ وقال في الاحتجاج الثاني: (رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ)وفي هذا الاحتجاج حصر دعوة موسى في حالين لا ثالث لهما عقلاً، فهو إما كاذب في دعواه، وإما صادق، فإن كان كاذباً فوبال كذبه مقصور عليه وحده لا يتجاوزه، ولا يحتاج في دفعه إلى قتله، وإن كان صادقاً يصيبكم بعض ما يعدكم من العذاب فاحذروا قتله ولا تؤذوه وإلا هلكتم.

([1]) الجمهور على أن اسمه حزقيل وأنه كان بن عم فرعون.

وقال في الاحتجاج الثالث ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي لو كان موسى مسرفاً كذاباً لما هداه الله ولما أيده بالمعجزات، بل خذله وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله، أي احذروا قتله لأنه مؤيد من عند الله القوي العزيز، ولعل في هذا الاحتجاج تعريضاً بفرعون، وهو أن الله لن يهديه لأنه مسرف في كفره بادعائه الألوهية، وكذاب فيما يدعيه.

تعقيب:

إن معارضة المحامي عن موسى لفرعون الظالم وآله الذين بأولهته لتدل على شجاعة نادرة لا تقل عن الجهاد في سبيل الله، لأن صاحبها يعرض نفسه للتضحية بحياته أحياناً كالمجاهد أمام خصمه العنيد في القتال ولذلك قال النبي صلي الله عليه وسلم: أفضل من الجهاد في سبيل الله كلمة حق عند سلكان جائر)) والدافع لقائل الحق وتضحيته عاملان: الإيمان، ونصره الحق، والساكت عن كلمة الحق شيطان أخرس، ولو وجد الظالم من يقوم إعوجاجه لما استطاع أن يسدر في غلوائه[1] وأن يلبس ثوب خيلائه، وأن يعيث في الأرض فساداً، وأن يكون مركزاً للقوة وبؤرة للإفساد.

ولكن أسلوب مقاومة الظالم بحسن أن تكون أول الأمر بالحوار اللين والعرض المعقول، والحجة الحاسمة، وياحبذا لو كانت المعارضة

[1] يسدر في غلوائه: يعني لا يهتم ولا يبالي ما صنع في غلوه ومجازاته الحد.

من رجل من آل الظالم وأقربائه، كما قال القائل: لكل شيء آفة من جنسه. فإن تأثير القريب في قريبه الباغي يكون أشد وقعاً من تأثير الأجنبي، كما أن المعارضة إذا صدرت من ذي شخصية بارزة ذات قوة ذاتية وركن شديد، كانت أكثر قبولاً ممن هو أقل شأناً وأضعف جنداً.

ومن أهم مقومات المعارضة المقبولة أن تكون على نسق معارضة مؤمن آل فرعون لفرعون وقومه من حيث لين القول، وحسن العرض، وقوة الحجة. ومن حسن العرض أن يبدأ الخطاب بما يجذبهم إلى الاستماع إليه من مثل: يا قوم. أيها الأخوة، أيها الوطنيون.. إلخ كما قال مؤمن آل فرعون "يا قوم إن كان لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا"؟ فقد أشرك نفسه مع قومه في قوله: "فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا"، ولم يقل: فمن ينصركم كما قال "لكم الملك" ليريهم أنه معهم، وأنه مخلص في نصحه لهم، وأنه لا يؤثر نفسه عليهم، وأنه يخاف عليهم من بأس الله وعذابه كما يخاف على نفسه.

فهل يتخذ المعارضون من الأفراد أو الأحزاب من القرآن كيفية معارضتهم ومحاورتهم، ويجعلون القرآن قدوة لهم ومثالاً يُحتذى به؟!

ومن العجاب أن يستخف فرعون قومه فيطيعوه، ويخالفوا نصح المؤمن لهم، ويسمعوا قوله لهم بعد تلك المعجزات والحجج البينات، إذ قال فرعون مستبداً برأيه: "ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل

الرشاد" فكذبه الله في قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وكذبه مرة أخرى في سورة طه في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾.

وماذا كانت عاقبة فرعون وقومه؟ كانت عاقبتهم الإغراق، وجعلهم الله عبرة للظالمين، ومثلاً للأولين والآخرين، وجعل جثه فرعون لمن خلفه آية لأن البحر قذفها إلى الشاطيء، وأصبح علماء الآثار وعلماء التاريخ يبحثون الآن بعد إغراق فرعون في عهد موسى عليه السلام عن جثته، ويحصرون بحتهم في ملوك الأسرة التاسعة عشرة من قدماء المصريين، متخذين من القرآن بصيصاً من نوره ليهديهم إلى جثة فرعون الذي لم بعين التاريخ جثته تعييناً يقينياً هل هي جثة رمسيس الثاني أو غيره. وسيكون للعثور على جثته عبر دينية وتاريخية واجتماعية كما أشار القرآن إلى ذلك منذ نحو أربعة عشر قرناً من الزمان. فقال: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾.

٣ـ حوار مع أشياع فرعون في إثبات وجود الله:

من العجب العجاب أن يكون لفرعون أشياع في عصرنا الحديث عصر العلم والتكنولوجيا، وفي دولة العلم والإيمان يذهبون مذهبه، ويفكرون بعقليته القديمة الضالة، فيطلبون دليلاً مادياً على وجود الله، ويكادون يطلبون رؤيته عياناً جهاراً كما سأل اليهود موسى عليه السلام "فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون".

ولو اطلعوا على الحوار بين موسى وفرعون الذي بينه القرآن أوضح بيان فيما سبق تفسيره، لآمنوا بالله وأيقنوا بوجوده، ألم يعلموا أن الجاهليين قبل عصر الإسلام كانوا مؤمنين بوجود الله والاستدلال على وجوده بخلق السموات والأرض "ولئن سألتم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله" ومن لم يؤمن بما دار بين موسى وفرعون من الحوار السابق فليقف معنا وقفة تأمل مجردة من أى هوى أو تقليد عقائدي أو أي مؤثر سوى التفكير الحر والحوار الهاديء الذى لا يشوبه أي تعصب أو تلبيس. والدليل العقلي هو أن كل أثر لابد له من مؤثر، وكل صنعة لابد لها من صانع، ولما كانت السموات والأرض وما بينهما من الممكنات المركبة ككل صنعة كان لابد لهما من صانع متقن وخالق ركبهما تركيباً يدل على قدرة فوق كل قدرة وعلى علم فوق كل علم، وإلا فكيف رفعت السماء بغير عمد ترتكز عليها كما يرتكز السقف على الأعمدة أو الحيطان؟!

فإن قيل إنها متماسكة بقوة الجاذبية، قلنا ومن خلق هذه الجاذبية، وهل يستطيع أحد أن يخلق مثل هذه الجاذبية أو يدلنا على المادة المكونة منها؟

ومن الذى زين السماء الدنيا بزينة الكواكب الساطعة، والنجوم اللامعة الت هي علامات يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر؟ ومن الذي مهد الأرض وسهل السير فيها وجعل فيها أنهاراً وسبلاً، ومعادن مختلفة وخيرات كثيرة يضيق هذا الحوار عن حصرها؟

ومن الذي خلق الإنسان من طين ونفخ فيه روحاً صار بها حياً ذا عقل مدبر يستطيع تسخير الحيوان والنبات والجماد؟ ولو فكر الإنسان في نفسه وهي أقرب الأشياء إليه، كيف ركبت وكيف سويت، وكيف خلق المخ من ملايين الخلايا التي لم يعرف الأطباء المختصون وعلماء النفس الباحثون إلا نحو عشرها بعد بحث مستمر منذ عشرات السنين، لو فكروا في صلة العقل بالقلب وبالدماغ كيف تكون هذه الصلة وكيف تنقطع بالجنون أو بالموت، لو فكروا في كيفية تحويل الغذاء إلى عناصر داخل الجهاز الهضمي، لأيقنوا أن هناك قدرة فوق قدرة الإنسان وعلماً فوق علمه هما القائمان بكل ما سبق.

لو فكر المرء في كيفية خروج الروح عند الموت وهو بجانب المختصر عند الفزع ينظر إليه وليس له حول ولا قوة في منع الروح من الخروج من الجسم أو إرجاعها إليه مهما تضافر هو والأطباء على الحيلولة دون الموت، لأيقن أن هناك قوة خفية تجتذب الروح من الجسم، فوق قدرة الأطباء وفوق علمهم، تلك هي الله سبحانه الذى تحدى البشر أن يعيدوا الروح إلى جسدها فقال تعالى في سورة الواقعة: فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين[1] ترجعونها إن كنتم صادقين".

(1) غير مدينين: أى غير مملوكين لنا، أو غير مجازين يوم القيامة ترجعون الروح إلى جسدها بعد خروجها منه.

إن من ينكر وجود الله إلا إذا رآه أو قدم له دليل مادي غير مخلوقاته من السماء والأرض وما بينهما كمن يحاول أن يلمس قرص الشمس وهو جالس على سريره. وهذا من المحال، وحسبه أن يستمتع من الشمس بنورها وحرارتها، مع فارق القياس بين رؤية الشمس والعجز عن لمسها وبين رؤية الإله في غير مخلوقاته. فالله غائب عن الحواس، ولكنه حاضر في العقول فهو نور السموات والأرض، ولكن لا يمكن أن يدركه البصر المحدود الرؤية، لأنه غير محدود كالأجسام، فكيف يدرك المقيد المحدود الإله المطلق بلا حدود؟!

على أن رؤية الإله أو التفكر في ذاته ليست من وظيفة الإنسان التى هي خلافة الله في الأرض لعمارتها ولعبادته وحده، والإيمان به وبرسله وكتبه وملائكته وباليوم الآخر، والتفكر في مخلوقاته هو الهادي إلى معرفة الله وليس هو التفكر في ذاته كما قال الحديث القدسي "تفكروا في خلقي ولا تفكروا في ذاتي فتهلكوا".

وهناك أدلة تاريخية وعلمية ونقلية أقرها اليهود والنصارى والمسلمون وكلها تدل على وجود الله، ومن أظهرها وأثبتها تكليم الله لموسى عليه السلام، فقد ذكرت هذه المكالمة في الكتب المنزلة: التوراة، والإنجيل، والقرآن.

وكذلك أثبت علماء الفلك والرياضيات أن السموات والأرض لم تكونا موجودتين قبل عدة من السنين قدرها بعضهم بثمانية ملايين سنة

وقدرها بعضهم بإثنى عشر مليوناً من السنين[1]وليس موضوع البحث هنا هو تحديد عمر كل من السماء والأرض وإنما هو إثبات أنهما حادثتان وجدتا بعد العدم ولهما أجل محدود سينتهي يوم القيامة كسائر المخلوقات، ولكن نهاية أجلهما من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله، لأن علم الساعة عند الله وحده.

إن من ينسب خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة إلى الطبيعة لهو قصير النظر محدود ضيق الأفق وإلا فليأت بدليل واحد على أن الطبيعة هي التى خلقت هذه المخلوقات، وليبين لنا ما هي الطبيعة التى يردد اسمها من غير إدراك مسماها؟ هل هي النطفة التى خلق منها الإنسان؟ إذا كان ذلك فمن الذي خلق النطفة ثم طورها إلى علقة ثم مضغة ثم إلى عظام ثم كسا العظام لحماً ثم نفخ فيه الروح الذى عجز البشر عن سره وإدراكه؟ هل خلقت النطفة نفسها؟ وهذا غير معقول، وهل خلقت بذور النبات نفسها من غير خالق أم خلقها الطبيعة؟! كيف خلقت الطبيعة الحياة في الحب والنوى وسائر المخلوقات؟ إن من يفكر في خصائص النمل والنحل والعنكبوت العجيبة التى لا يزال العلماء يبحثون في كشف أسرارها ليدرك أن خلقها يدل على أن خالقها عليم قدير. إن من يفكر في خلايا مخ الإنسان ويعلم أن المخ هو المسيطر على جميع وظائف الجسم الإرادية واللاارادية بإرسال إشارات كهربية إلى أعضاء الجسم بواسطة الأعصاب التي تصل بين مراكز المخ المختلفة

---

(1) يراجع هذا البحث في كتاب دليل الجيران في آيات القرآن للمؤلف، ص٩٠-١٠٧.

وأعضاء الجسم ليوقن أن ذلك كله لم يخلق نفسه ولم يحدث عفواً، ولم تخلقه الطبيعة المجهولة وإنما خلقه العليم الخبير. ومثل المخ القلب ووظيفته، كيف خلقت الطبيعة الإنسان مثلاً وهيأته للإدراك والفهم واستنباط الصنائع المتنوعة والمخترعات العجيبة التي هي نتيجة العلوم الحديثة؟

إن من ينظر نظرة عامة شاملة يجد التكامل والتناسق بين سنن الكون سواء منها ما يسمى بالقوانين أو ما يسمى بالقيم الدينية، فكلها أجزاء متكاملة ومترابطة لسنة الله الشاملة لهذا الكون الذي هو كتاب الله المنظور الشاهد على وجود خالقه جل جلاله.

إن من لم يؤمن بالغيب لهو في صف البهائم وفى مستوى الحيوانات لأنه مثلها محدود بما بقع تحت حسه، لأن الفارق بين الإنسان والحيوان هو الإيمان بالغيب وما وراء المحسوسات إذ أن الإنسان له عقل وتفكير يتجاوز تفكير الحيوان وعقله. ومن هنا كان الإيمان بالله واليوم الآخر من أسس الدين الإسلامي ومن لم يؤمن بذلك فهو من الكافرين.

ولو كان كل غيب عن الحواس منكوراً لأنكرنا بناة الأهرام، وبناة الكعبة، وبناة المسجد الأقصى، وغيرهم لأننا لم نر بناتها، ولكنا صدقنا الآثار الموجودة، والتاريخ ولقد صدق من قال:

تلـــك آثارنـــا تـــدل علينـــا فـــانظروا يعـــدنا إلـــى الآثـــار

شهادة أحد علماء الفضاء المعاصرين:

وما رأى المنكر أو الشاك في شهادة أحد علماء الفضاء الأمريكيين المعاصرين[1] الذى صعد إلى القمر ثم أهدى علماء مصر صورة نادرة للأرض التقطها وهو فوق القمر ثم قال: "إن التأمل في الفضاء يؤكد للإنسان وجود قوة خارقة تتحدى قوانين الطبيعة والرياضة التي عرفها الإنسان، وهذه القوة الخارقة التي عجز البشر عن الوصول إلى سرها حتى الآن هي الله. وقد عاد من رحلته إلى القمر كإنسان متصوف بدأ يدعو عن طرق جمعية دينية إلى حب الله، وليست هذه الشهادة إلا بعد تأمل في الفضاء الواسع الذى يكل البصر عن الإحاطة بحدوده فيرتد وهو حسير. والتفكر والنظر إلى ملكوت السموات والأرض هو ما وجه القرآن إليه منذ أربعة عشر قرناً من الزمان للدلالة على وجود الله وتوحيده في لآيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ* إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

(1) اسم هذا العالم جيمس ابرويس (اهرام ١٩٧٥/١/١٣ صفحة ١١ أول المحرم سنة ١٣٩٥).

أفى الله شك فاطر السموات والأرض؟!

لم يشك الجاهليون عباد الأصنام في وجود الله وإنما اتخذ بعضهم الأصنام شفعاء لهم عند الله وقالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)، ويؤيد ذلك إقرار بعض حكماء الجاهلية الأفذاذ بوجود الله. ومنهم خطيب العرب في الجاهلية، والمضروب به المثل في البلاغة والحكمة والموعظة الحسنة "قس بن ساعدة الإيادي" الذي كان يدين بالتوحيد يؤمن بالبعث ويدعو العرب إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام. ولقد مات قبل بعثة الرسول صلي الله عليه وسلم.

ومن خطبته التي خطبها في سوق عكاظ قوله: (سماه ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساه، وأرض مدحاه، وأنهار مجراه، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، ثم قال: "يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه، إن لله دينا هو أرضي لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه".[1]

وها هو ذا قد أقر بوجود الله ووحدانيته إقراراً صريحاً مؤكداً بالقسم ومؤيداً بتوجيه الأنظار والأفكار إلى السموات والأرض وما فيهما من دلائل على وجود الخالق لهما، وهذا التوجيه هو الذى أيده القرآن وكرره في آيات كثيرة.

---

(1) من كتاب الوسيط في الأدب العربي صفحة ٢٤.

قد يكون الشك أول الأمر مفتاح اليقين:

كثيراً ما كان الشك في أمر الدين سبيلاً إلى اليقين بعد البحث وتحرر العقل من أغلال العادات والتقاليد والمؤثرات العاطفية والبيئية، والأمثلة على ذلك كثيرة. نذكر منها ما كان في الجاهلية من شك بعض الجاهليين في عبادة الأصنام حتى بلغ بهم الشك في صحة هذه العبادة أن تركوها وذهبوا يبحثون عن دين غير دين الجاهلية يُرضي عقولهم حتى اعتنق بعضهم دين المسيحية وذهب بعضهم يبحث عن دين آخر حتى اهتدى إلى الدين الجديد دين الإسلام، وهو زيد بن نفيل.[1]

ومن الأمثلة الحديثة الدالة على اعتناق الإسلام لكثير من أهل الأديان الأخرى اليهودية والمسيحية والبوذية في أوروبا وآسيا وأمريكا واليابان وغيرها، وبعض الفلاسفة وأساتذة أرقى الجامعات الذين شكوا أول الأمر ثم بحثوا ووازنوا بين الأديان كلها وقرءوا كتبها المنزلة وكتب المستشرقين في الديانات ثم اختاروا الدين الإسلامي وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصبح بعضهم من المتصوفين الذين كونوا جمعيات دينية تدعو إلى الإسلام وتنشر مبادئه الصالحة لكل زمان ومكان، ومن هؤلاء (مارتن لينجر الإنجليزي الأصل والأستاذ بجامعة لندن الذي أسلم سنة ١٩٣٨م وكان مسيحياً بروتستانتياً وسمى نفسه أبا بكر سراج الدين).

---

(1) يراجع تفصيل قصتهم في كتاب البيان في منهاج الإسلام للمؤلف.

ومن اعتنق الإسلام المستشرق الفرنسي "رينيه جينو" وكان من كبار المفكرين في التصوف الإسلامي وتسمى باسم عبد الواحد سراج الدين وعاش في القاهرة طوال حياته حتى توفى ودفن في مقابر المسلمين.

وكذلك أسلم الدكتور (باترسون) الأستاذ بجامعة القاهرة بعد أن مر بمرحلة الشك الأولى التى حفزته على البحث في الأديان فاختار أسهلها وأيسرها وأصدقها وسمى نفسه حسين نور الدين، ثم توفى ودفن في القاهرة أيضاً.

وأسلم كذلك الدكتور عمر إدجار الأمريكي الأستاذ بجامعة كاليفورنيا بأمريكا.

وأسلم غير هؤلاء كثير من النساء والرجال في أرجاء الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ممن يتعذر حصرهم ويضيق هذا الباب عن أسمائهم وسيرهم[1]والمستقبل كفيل بالكشف عن إطراد زيادة عدد المسلمين وبظهور الإسلام على الأديان كلها كما قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً).

([1]) وأحدث من أسلم في أواخر القرن الرابع عشر الهجري في المحرم سنة ١٣٩٥ه الموافق فبراير سنة ١٩٧٥م هو القنصل العام لكوريا الجنوبية والقاهرة واسم (لم تشاج موه) وقال إن سبب إسلامه لهو اقتناعه بسمو مبادىء الإسلام وتعاليمه (من أهرام ١٩٧٥/٢/٦م).

تعقيب:

قال الدكتور (مارتن لينجر) الإنجليزي إن أساس إيماني هو القاعدة التي وضعها الرسول وهي "اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" وقال إني درست القرآن والتفسير والحديث العربي".

وفحوى كلامه أن دراسة القرآن والتفسير والحديث فيها شفاء للنفوس المريضة الشاكة، وفيها جلاء لصدأ العقول التي ران عليها الجهل وغلفتها العقائد الموروثة الفاسدة.

والعقل يصدأ كالحسام لعارض نظراً عليه، وصقله التذكر

وهذا ما نبه عليه الرسول صلي الله عليه وسلم فقال: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي".

فإن أراد المسلمون أن يستعيدوا مجد المسلمين الأولين الذين سادوا العالم في زمانهم فليقبلوا على قراءة القرآن وتفسيره وعلى قراءة أحاديث الرسول وسننه، والأدب العربي ولغته، فإن لغته هي المعينة على فهم القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين.

٤ـ نموذج من الحوار بين معلم ومتعلم عظيمين:

المعلم العظيم هنا هو الحضر والمتعلم العظيم هو موسى عليهما السلام، وقصة الحوار بينهما في سورة الكهف على النحو التالي:

قال موسى للخضر: "هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً؟ قال إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً"؟

قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً.

قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً.

فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها.

قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً أمراً.

قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟

قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهني من أمري عسراً،

فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله.

قال أقتلت نفساً ذكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً،

قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟!

قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه.

قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً.

قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً.

لقد بدأ هذا الحوار باستفهام من موسى عليه السلام من الحضر مصوغ في أسلوب من الأدب والاستئذان منه بقوله "هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشداًا؟" أي هل تسمح لي وتأذن أن أكون تابعاً لك على شرط أن تعلمني مما علمته علماً ذا رشد أي علماً نافعاً مرشداً للصلاح والصواب؟

والفرق شاسع بين هذا الأسلوب وبين أن يقال للخضر إني أريد أن تعلمني بعضاً مما تعلم. لخلو هذا الأسلوب من حسن العرض والتلطف والاستئذان والاستفهام والتبعية التي تدل على تواضع المتعلم للعلم.

وكان رد المعلم عليه مصوغاً في أسلوب رائع يدل على صعوبة اتباع موسى للخضر، وعلى عدم استطاعته الصبر عنه، وأيد تلك الصعوبة وعدم الصبر باستفهام تعجبي إذا صبر على ما لم يخط به خبراً، فقال: (إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تخط به خبراً).

يعنى لا يمكنك يا موسى الصبر على أفعالي التى لم يحط خبرك وعلمك بأسرارها وبواطنها وكان يمكن الخضر أن يقول لموسى: كلا. ولكنه لم يرد أن يكفه عن السؤال أو يرد عليه رداً مبتوراً غير مستند إلى دليل، ولذلك لم ييئس موسى من طلبه. بل قال للخضر: "ستجدني إن

شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً" وبعد أن سمع الخضر محاورة موسى له واستعانته بمشيئة الله واستجابته لطاعته لم يسعه إلا أن بقبل طلبه، وشرط عليه ألا تسأله عن شيء يفعله حتى يبين له سره الذي يخفى عليه "قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً".

ثم انطلقا معاً يسيران على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فركبا فيها مع ركابها، وفاجأهم الخضر بإخراق السفينة بأن قلع منها بعض ألواحها فدهش موشى من خرق السفينة ولم يستطع السكوت والصبر على خرق السفينة خوفاً على غرق ركابها فاعترض على فعله التخريبي في ظاهره له ولكنه صاغ اعتراضه واستنكاره في أسلوب استفهامي تعجبي، وعلل سبب اعتراضه فقال له: "أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً أمراً"؟ أي شيئاً عجيباً غريباً عظيماً. وكان يمكنه أن يقول له: كيف تخرق هذه السفينة وفيها أهلها ولم تبال بغرقهم. إن فعلتك هذه لا يقرها عقل ولا شرع، ولكن الفرق بين هذا الأسلوب والأسلوب السابق لا يحتاج إلى بيان.

فأجابه الخضر إجابة لينة ليس فيها إلا تذكيره بما سبق أن أكده له حين قال: "إنك لن تستطيع معي صبراً" وكان يمكن أن يهمله ولا يجيبه، أو يمكن أن يرد عليه رد المعلم الجاف الذى يؤلم المتعلم المخالف لنصحه. ولذلك بادر موسى بالاعتذار لمعلمه بسبب نسيانه نصيحته السابقة ورجاه ألا يرهقه عسراً بالمؤاخذة على النسيان "قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً" ثم خرجا معاً من السفينة، وبينما

هما يمشيان على ساحل البحر إذا أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فقتله الخضر، ففزع موسى من هذا الفعل فزعاً شديداً ولم يستطع الصبر والسكوت عليه، فراجع الخضر واعترض عليه مرة ثانية وقال له بأسلوب أدبي مبدوء باستفهام إنكاري تعجبي "أقتلت نفساً ذكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً" وكان يمكن أن يقول له: لقد فعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الظالمين، كيف تقتل هذا الغلام الذكى الطاهر الذي لم يرتكب جناية قتل حتى تقتص منه، ولم يقترف ذنباً أمامنا يستدعي قتله؟!

ولكن الخضر لم يعنف موسى ولم يؤنبه على اعتراضه عليه مرة ثانية بل كرر له تذكيره بما سبق من نصحه فقال: "ألأم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً"؟! وزيادة (لك) في هذه المرة تشعر بعتابه لموسى على ترك وصيته وعلى تكرير الاعتراض والمحاورة التي كادت تصل إلى الجدال والخصام كما تشعر به كلمة (نكراً) وهي أشد وأفظع من كلمة (امراً) في المرة الأولى.

وبعد ذلك استحيا موسيى وحكم على نفسه بأنه لو سأل الخضر مرة ثالثة فلا يصاحبه في رحلته هذه، لأنه قد بلغ مبلغاً بعذر له في ترك مصاحبته بسبب مخالفته واعتراضه عليه مرتين "قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً"

والدليل على استحياء موسى ما روى عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: (رحم الله أخي موسى استحيا فقال ذلك، لو لبث مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب).[1]

ثم انطلقا معاً بواصلان رحلتهما حتى إذا أتباً أهل قرية إنطاكية أو أبلة البصرة وهي أبخل قرية، طاقا بها واستطعما أهلها وكان الجوع قد بلغ منهما مبلغه. فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا في القرية حائطاً بريد أن ينقض ويسقط، فأقام الخضر الجدار وعدل ميله بمجرد أن مسحه بيده.[2]

ولما رأى موسى إصلاح الخضر للحائط الذي كان آيلا للسقوط دون أن يطلب أجراً على ذلك العمل من أصحاب الحائط وهما في أشد الحاجة إلى شراء الطعام لم يستطع السكوت وقال للخضر "لو شئت لاتخذت عليه أجراً".

وفي رد موسى على الخضر في هذه المرة الثالثة عرض لطيف وليس اعتراضاً عليه كما في رده عليه في المرتين السابقتين، فإنه قد بدأ هذا العرض بلفظ (لو) ولكن الخضر اضطر إلى تنفيذه وعده السابق وهو قوله "إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً".

---

(1) الحديث في تفسير القرطبي ص٤٠٦١ طبعة الشعب.
(2) قال القرطبي: هذا القول هو الصحيح وهو الأشبه بأفعال الأنبياء.

قال الخضر لموسى "هذا وقت الفراق بيني وبينك على حسب الوعد السابق الذي وعدت، ولكن الخضر المعلم الماهر لم يترك موسى المتعلم حائراً غير عالم بأسرار أفعاله الثلاثة التي اعترض على فعلها أو سأله عن أسبابها، شأن المعلم الحريص على تعليم تلميذه، ولو اعترض عليه بسبب خفاء بعض المسائل وغموضها فقال الخضر لموسى: "سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً" أي سأخبرك بمال ما فعلت وسأبين لك الأسباب التي خفيت عليك.

إجابات الخضر عن أسئلة موسى

قال: "أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غضباً".

وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً.

وإجابة الخضر عن سبب خرق السفينة تتلخص في خوفه من اغتصاب الملك الظالم لها وقطع سبب العيش والرزق للمساكين الذين يرتزقون بها، وكان الملك يغتصب كل سفينة صحيحة صالحة للملاحة

فأشفق الخضر على أهلها المساكين الضعفاء أن يفقدوا سفينتهم وكان حريصاً على رعاية أحوالهم، على أن السفينة يمكن أصلاحها بعد، فهذا العمل كان في حقيقة الأمر لمصلحة المساكين، وإن بدأ في ظاهره ضد مصلحتهم.

وقرأ ابن عباس وابن جبير "وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صحيحة غضباً".[١]

وإجابته عن سبب قتل الغلام تتلخص في خوفه على أبويه المؤمنين أن يرهقهما ابنهما أي يجشمهما ويكلفهما طغياناً وكفراً بسبب محبتهما له وممالاته على طغيانه، ودفاعهما عنه دفاع الأبوين عن ابنهما المعتدي على غيره، فيتحملان معه وزره ويشاركانه في الظلم، وكانت خشية الخضر بسبب ما أعلمه الله جل جلاله علام الغيوب. كما روى عن ابن عباس رضى الله عنه، أن نجده الحروري كتب إليه: كيف قتله وقد نهى النبي صلي الله عليه وسلم عن قتل الوالدان؟ فكتب إليه إن كنت علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل" وقال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد، وحزناً عليه حين قتل، ولو بقى لكان فيه هلاكهما" يعني أن هلاكه كان فيه نجاتهما وكان فيه الحفاظ على إيمانهما.

---

(١) كان البحر الذي يعمل فيه المشاكين ما بين فارس والروم. ذكره الثعلبي في تفسير القرطبي ص٤٠٧٣ وقراءة ابن عباس في تفسير القرطبي وذكر البخاري أن اسم الملك (هدد بن بدد).

ومن العجيب أنه لا يزال يحدث في المجتمع الإنساني حتى في عصرنا الحديث ما يشبه قصة هذا الغلام، فقد كان أحد الأبناء سبباً في إعدامه وكان سبباً في جر أبيه الهرم إلى السجن، بسبب خيانة الابن لوطنه للتجسس عليه هو وأبوه في عام ١٩٧٣، ألم يكن من مصلحة هذا الشاب وأبيه أن يموت قبل أن يجني جنايته على نفسه وعلى أبيه وعلى وطنه؟ ولكن الله يريد أن يظهر سوء نيته، وقبح أفعاله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ليجعله عبرة للخائنين، وموعظة للجاهلين[1]أما الغلام الذي قتله الخضر فقد أبدل الله أبويه خيراً منه طهارة نفس وقرب صلة رحم، فقد روى عن بن عباس أن أم هذا الغلام قد ولدت بنتاً وهذه البنت قد ولدت نبياً هدى الله به أمة.

ومن هذا يتبين أن عاقبة قتل الغلام كانت خيراً للأبوين وللمجتمع وإن كان ظاهرها شراً وظلماً، ولهذا يجب أن يسلم المرء لقضاء الله، وأن يعلم أن لكل قضاء حكمة لو اطلع عليها لاختار ما وقع، وما أحسن قول القائل:

أحســـن بالواحـــد مـــن وجـــده   صـــبر يعيـــد النـــار فـــي زنـــده
ســـلم إلـــى الله فكـــل الـــذي   ســـاءك أو ســـرك مـــن عنـــده

---

(1) من الأسف أن هذا الشاب مصري واسمه سمير وليم وقد تجسس على وطنه لإسرائيل في حرب العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ فقبض عليه وحكم عليه بالإعدام وحكم على أبيه بالأشغال الشاقة ١٥ سنة لأنه اتبع ابنه في التجسس.

وأما إجابة الخضر عن إقامته الجدار المائل الذي أشرف على السقوط هي الرحمة والرأفة باليتيمين لأن هذا الجدار كان تحته كنز لهما من الذهب والفضة كما روى ذلك مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم[١] وهذا كان قد تركه لهما أبوهما الصالح بعد وفاته، وكان صلاح أبيهما من أسباب إقبال الخضر على إقامة الجدار حتى يبلغ اليتيمان أشدهما أي كمال جسمهما وعقلهما وصلاحيتهما فيستخرجا كنزهما، وينتفعا به في معيشتهما. وقد روى أن الله يحفظ الصالح في سبعة من ذريته.[٢]

ثم ختم الخضر تأويل وتفسير أسباب أفعاله السابقة بأن بين أن فعلها لم يكن عن أمره ورأيه وإنما فعلها بأمر الله عز وجل إذ قال: "وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً".

استنباط من هذا الحوار:

على المعلم والمتعلم أن يعتصما بالصبر والحلم في حوارهما، فلا يتأفف أحدهما من صاحبه، ولا يتضجر، ولا يتضايق المعلم من أسئلة المتعلم ما دام غرضه معرفة ما يجهله، وتوضيح ما غمض عليه، كما يجب أن يتحمل المتعلم عنف المعلم عليه أحياناً عملاً بقول القائل:

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة   تجرع كأس الجهل طول حياته

---

(١) في تفسير البيضاوي ص٢٣٣، ج٣.
(٢) في تفسير القرطبي ص٤٠٧٨ طبعة الشعب.

وعلى المتعلم أن يتحلى بفضيلة التواضع والأدب أمام معلمه فيستأذنه عند سؤاله، ويطيع أمره إذا أمره بالانتظار، وأن يعتذر لمعلمه إذا خالف أمره كما وقع بين موسى والخضر عليهما السلام.

وعلى المعلم أن يراعي إحساس المتعلم وشعوره فلا يرهقه بمؤاخذته، ولا يضايقه بتوبيخه أمام زملائه ما دام مراعياً آداب التعلم من حسن عرض الأسئلة في وقتها المناسب ما لم تضيع زمن الدرس المحدود أو تنقلب إلى جدل عقيم خارج عن الدرس، أو تكون للتحدي والتعنت، فللمعلم أن بطلب من المتعلم الصبر والانتظار حتى ينتهي من شرح الدرس فلا يضيع على سائر التلاميذ شيئاً من الزمن المحدود، وليعلم المعلم أن بسمة منه تفتح مغاليق عقل المتعلم وتشيع الثقة بينه وبينه وتساعده على شرح درسه.

يجب ألا يجزع الإنسان مما يصيبه من نكبات وقوارع وبخاصة إذا خفى عليه سرها كمصيبة موت الأبناء أو آفة الزرع أو هلاك الماشية أو الخسارة في التجارة وما إلى ذلك من كوارث الدنيا، فلا ينبغى أن يعترض ويسب الدهر ويضيق بالحياة، أو ينتحر، فأن لكل شيء سبباً وحكمة إلهية باطنها خير من ظاهرها ولو علم الإنسان بأسرارها وأسبابها الحقيقية لاختار الواقع.

ولعل غاية هذا الحوار الإشعار بالتحلي بالصبر والرضا بقضاء الله وأحكامه العادلة وإن خفى على المرء سببها، أو كان ظاهرها إجحافاً وظلماً، ولا يظلم ربك أحداً.

٥ـ حوار عجيب بين نبي وطائر:

من المعجزات الخارقة للعادة التي خص الله بها نبيه سليمان بن داود عليهما السلام، أن علمه منطق الطير وفهمه لغته، كما فهم الطير لغة سليمان ودليل ذلك الحوار الذي دار بين سليمان والهدهد، وقد نص عليه القرآن في سورة النمل في الآيات التالية:

قال تعالى حكاية عن سليمان: "وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم".

بعد أن أتم سليمان عليه السلام بناء بيت المقدس بالشام للعبادة والتقرب إلى الله قصد حج بيت الله الحرام بمكة وبعد أن أتم حجه بها إستأنف رحلته إلى اليمن ونزل بأرضها ظهراً في مفازة ليس بها ماء، فتفقد

الطير الذي صاحبه في رحلته، وطلب الهدهد الذى هو رائده إلى الماء ودليله عليه، لأن الهدهد قد خصه الله بميزة رؤية الماء في باطن الأرض وفي ظاهرها، وكان يخبر سليمان بمكان الماء أينما كان، ولكن سيلمان لم يجد الهدهد مع الطيور فتساءل متعجباً. ما للهدهد لا أراه؟ بل كان من الغائبين، ثم غضب سلمان غضباً شديداً على الهدهد بسبب غيابه وإخلاله بعمله ووظيفته. وأقسم ليعذبنه عذاباً شديداً أو ليذبحنه إن لم يأته بحجة تبين عذره، ولكن الهدهد لم يمكث غير وقت قصير حتى جاء سليمان مسرعاً ومعه حجته السارة العجيبة وقال لسليمان: "أحطت بما لم تحط به" أي علمت بما لم تعلم به من الأسرار "وجئتك من سبأ بنبأ يقين".

قال له سليمان سائلاً ومشتاقاً إلى معرفة هذا النبأ العظيم: وما ذاك النبأ أيها الهدهد؟!

قال الهدهد: "إني وجدت امرأة تملكهم" أي تملك أهل سبأ وهي "بلقيس بنت شراحيل" وأوثيت من كل شيء" مما يحتاج إليه الملوك "ولها عرش عظيم" أي كرسي ضخم نجلس عليه[1]واستمر الهدهد يحكي له ما رآه فقال: "وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ورين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) أي حسن لهم الشيطان أعمالهم وكفرهم وسجودهم للشمس فصدهم عن

([1]) قيل كان عرشها مصنوعاً من الذهب، وعن ابن عباس أنه قال: كان طول عرشها ثمانين ذراعاً وعرضه أربعين ذراعاً وارتفاعه ثلاثين ذراعاً... الخ كما في تفسير القرطبي.

سبيل الله وعبادته فهم ضالون لا يهتدون إلى السجود لله وحده، وكان أولى بهم وهم أصحاب الملك والسلطان والرأى أن يسجدوا لله المستحق للسجود لتفرده بكمال القدرة والعلم، فهو الذي يخرج الخبء أي يظهر المكنون في السموات والأرض، كإظهار بعض الكواكب المخبوءة التي بلغت في هذا العصر تسعة كواكب في المجموعة الشمسية(1)ولم يظهر منها قديماً إلا سبعة كواكب. والمتوقع أن يكشف علماء الفضاء ورواد الكواكب بعض أسرار السماء في رحلاتهم المتتابعة ومحاولاتهم الكشف عن أسرار الكون، وكذا اهتدى علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) إلى بعض كنوز الأرض المخبوءة في باطنها كالبترول والفوسفات واليورانيوم، والنحاس، والنيكل والحديد، والكروم الذى هو معدن استراتيجي عظيم، وفي البلاد العربية كثير من هذه الثروة المعدنية، هذا إلى صلة الأرض بالسماء كإنزال المطر وإنبات النبات إلى غير ذلك مما ينفع الناس، سخر الله كل هذه المخبوءات وغير المخبوء في الأرض والسموات لخلفائه في الأرض لعمارتها وإصلاح شئونهم وهو يعلم ما يخفون من الأسرار وما يعلنون، لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

ولما سمع سليمان نبأ الهدد العجيب هش له وبش وسر بما أنبأ به، ولكنه أراد أن يتحقق من قوله بالفعل، فقال للهدهد: "سننظر أصدقت أم

---

(1) أذاعت وكالة الأنباء الصينية في شهر فبراير سنة ١٩٧٥ أن علماء الفلك الصينين اكتشفوا كوكباً صغيراً جيداً يتحرك في مدار غريب إلى حد ما، وأن ؟؟ الكوكب يمر في اتجاه شمال غرب بزاوية تزيد على نصف درجة في اليوم.

كنت من الكاذبين، إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون" أي ماذا يرجع بعضهم القول إلى بعض.

حوار ملكة سبأ مع ملئها

لما ذهب الهدهد إلى ملكة سبأ ألقى كتاب سليمان أمامها بقصرها في مأرب، ولما قرأته دار بينها وبين ملئها الحوار التالي:

"قالت يأيها الملأ إنى ألقي إلى كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا على وائتوني مسلمين، قالت يأيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون".

قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين، قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون، وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون.

لم تستبد بلقيس برأيها في كتاب سليمان بل استشارت المقربين إليها من أصحاب الرأي والمشورة فيما يتضمنه هذا الكتاب الخطير من أمرين عظيمين: الأمر الأول هو ألا يعلوا على سليمان استكباراً وأنفه، والأمر الآخر أن يأتوه مسلمين أي مذعنين طائعين.

فأشار عليها جنودها بحرب سليمان إن أرادت، لأنهم أصحاب قوة وبأس شديد في الحروب، والأمر إليها وهم رهن إشارتها، وطوع بناتها، ولكن ملكة سبأ رأت التروى والتريث ونظرت في عاقبة الحرب وشرها

المستطير وفيما يفعله الملوك المنتصرون من فساد في البلاد ومن إذلال لأهلها الأعزاء، ورأت أن تعجم عود سلمان، وتجس نبضه وتخبر نيته وتظهر إرادته، فأرسلت إلى سليمان رسلاً من قبلها بهدية غالية الثمن لتتبين هل هو ملك مادي يفرح بالهدية ويطمع في المال فيدهن ويلاين في دعوته، أو يرد الهدية ويصر على طلبه؟

فلما جاء وقد رأسلها إلى سليمان وقدموا إليه هديتها التي فيها من ضروب الإغراء ما يبعث على قبولها والسرور العظيم، رد سليمان الهدية وقال "أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون، قال يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم، قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون، فلما جاءت قيل أهكذا عرشك، قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح ممرد من قوارير، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين".

لم يقبل سليمان الهدية مبيناً سبب ردها باستنكار إمدادهم إياه بالمال ومخبرهم بأن ما آتاه الله من النبوة والملك والمال خير مما أعطاهم، وأعلمهم أن هديتهم لا تفرحه كما يظنون بل هم الذين يفرحون بالهدية لأنهم ما ديون طلاب أموال، ثم قال لرئيس الوفد[١]" ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بحربها ولنخرجنهم من مدينة سبأ أذلة وهم أسرى مهانون إن لم يسلموا.

فلما رجع الرسول إلى الملكة ومعه هديتها وأخبرها بما قال سليمان، قالت: عرفت أنه نبي ولا طاقة لنا بقتال نبي من أنبياء الله. ثم توجهت إلى سليمان في عدد كثير من أقيال اليمن[٢]وجنودهم. فلما علم سليمان بذلك قال لملئه: "يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين" وكانت بلقيس قد تركت عرشها بسبأ ووكلت حفظة وحرساً شديداً، ولعل سليمان أراد أن يأخذ عرشها قبل أن يحمي إسلامها عرشها وأموالها كما يشعر بذلك قوله: ائتوني به "قبل أن يأتوني مسلمين". وكذلك ليريها قدرة الله على سرعة نقل العرش من اليمن إلى الشام على الرغم من بعد المسافة ومشقة نقله، وليجعل ذلك من أدلة نبوته.

(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين) أي آتيك بالعرش قبل أن تقوم من مجلسك الذى

---

(١) رئيس الوفد اسمه المنذر بن عمرو كما في تفسير القرطبي.
(٢) الأقيال: جمع قيل وهو الملك الصغير دون الملك العظيم.

تحكم فيه، وكان سليمان يجلس للحكم إلى نصف النهار وإني على حمل العرش لقوي وأمين على ما فيه بحيث لا ينقص منه شيء.

قال سليمان: أريد إحضار العرش في مدة أسرع من هذه المدة.

"قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك" أي آتيك بالعرش في لحظة فتح العين وغمضها، وهذا مثل في السرعة الخاطفة. كما يقال، أفعل هذا في لحظة عين.

واختلف العلماء في تعيين الذي عنده علم من الكتاب، ولكن الجمهور على أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا، وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن اسم الله الأعظم الذي دعا به آصف بن برخيا "يا حي يا قيوم[١]".

فلما أتى بالعرش بين يدى سليمان ورآه مستقراً وثابتاً عنده "قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم" أي غني عن الشكر كريم في التفضل بنعمه على خلقه، ولما جاءت الملكة قال سليمان لملئه: "نكروا لها عرشها" وغيروا هيئته ننظر أنهتدي إلى معرفته أم لا يهتدي ليختبر بذلك قوة عقلها أو ضعفه، لأنه أبلغ أنها ضعيفة العقل "فلما جاءت قيل أهكذا عرشك فالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين".

(١) المصدر: تفسير القرطبي.

وإجابة بلقيس تدل على كمال عقلها، فإنها لم تقر بأنه هو عرشها، لأنها تركته في قصرها مغلقاً عليه وحوله الحرس من كل جانب، ولم تنكره لأنه يشبهه شبهاً قوياً، ولعلها أدركت بذكائها وفطنتها أن سليمان يريد اختبار عقلها وإظهار هذه المعجزة الدالة على نبوته فقالت "وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين" تعني وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل معجزة العرش بما سبق من الآيات وكنا مسلمين أي منقادين طائعين لأمره.

وصدها عن الإسلام من قبل ما كانت تعبد من دون الله كعبادة الشمس لأنها نشأت بين القوم الكافرين فكانت كافرة مثلهم.

وأراد سليمان أن يريها قصراً أعظم من قصرها فأمر ببناء قصر قبل قدومها وجعل صحته من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه بعض الحيتان وجلس سليمان على كرسيه في صدر القصر ولما قدمت بلقيس "قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن شاقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير" أي قصر مملس من زجاج.

"قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين" أي ظلمت نفسي بعبادة الشمس وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين فيما أمر به عباده مع توحيده وعبادته وعدم الإشراك به.

ما يستنبط من هذه القصة:

إن الهدهد قد سبق الأقمار الصناعية التي تستخدم الآن لكشف مواضع المياه الجوفية بالأراضي بآلاف السنين منذ خلقه الله وأودع فيه غريزة رؤية الماء في باطن الأرض وظاهرها، ولذلك كان دليل سليمان عليه السلام إلى معرفة أماكن الماء، وكان ذلك من أسباب تفقد سليمان له بين الطيور حينما نزل بأرض اليمن ولم يجد الماء.

ويستنبط من حوار الهدهد مع سليمان أن الأنبياء لا يعلمون الغيب، كما يدل على ذلك قول الهدهد لسليمان عليه السلام "أحطت بما لم تحط به" إلى آخر ما أنبأه به مما كان لا يعلمه.

إن الله جل جلاله قد خص الهدهد بمزايا ومعارف لا تكاد العقول الراجحة تهتدي إلى مثلها كمعرفته أن سجود ملكة سبأ وقومها للشمس من دون الله ضلال زينه الشيطان لهم فصدهم عن سبيل الحق، سبيل توحيد الله وعبادته، ولذلك ذكر اسمه في القرآن دون سائر الطيور. وقد قبل سليمان عذره بعد أن أدلى بحجته الدالة على صدقه، ومن وسائل الدعوة إلى الإسلام بالتى هي أحسن، البدء بإرسال الكتب والرسائل من الداعي إلى الكفار والمشركين كما أرسل سليمان كتابه إلى ملكة سبأ وقومها. وكما أرسل النبي صلي الله عليه وسلم كتبه إلى كسرى وقيصر والمقوقس زعيم القبط في مصر. وهي الوسيلة السلمية المقدمة على الحرب ووسائل العنف المنفرة المكروهة.

ويستنبط أيضاً أنه يجب أن يبدأ الكتاب والرسالة باسم الله الرحمن الرحيم كما بدأ سليمان كتابه الذى أرسله إلى ملكة سبأ، وأن يختم الكتاب بختم المرسل وتوقيعه للدلالة على احترام المرسل إليه. وللتيمن باسم الله والتبرك به كما نبه على ذلك نبينا صلي الله عليه وسلم في حديث مشهور. ومعناه "كل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر أو أجذم" أي مقطوع البركة لا خير فيه. إن وصف ملكة سبأ لكتاب سليمان بأنه "كتاب كريم" يدل على تأثرها به وتوقيرها لمرسله لما تضمنه من افتتاحه باسم الله الرحمن الرحيم ومن إيجاز واضح لما هو مطلوب بأسلوب حسن العرض خالى من التهديد والوعيد بالعنف والقوة.

إن الهدية إذا ترتب عليها ضياع حق ديني أو وطني أو روعي فيها المجاملة على حساب المصلحة العامة فإنه يجب ردها وعدم قبولها كما رد سليمان هدية الملكة.

إن الشورى في الأمور العامة ولاسيما الخطيرة منها كالحرب ونحوها، واجبة على الإمام نحو الرعية، لأن الشورى تتضمن حواراً. وتبادل الآراء للبحث عن الصواب ورأيان أفضل من واحد كما قال الشاعر الحكيم. وكما فعلت الملكة.

تـــأن وشـــاور فـــإن الأمـــــ ـــــور منهـا جلـى ومسـتغمض

فرأيـــان أفضـــل مـــن واحـــد ورأى الثلاثـــة لا تـــنقض

وهكذا يرشد القرآن بالحوار والجدال إلى أقوم السبل في الدين والسياسة والاجتماع ويمدح أهل الشورى كما يشعر بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وقوله تعالى للنبي صلي الله عليه وسلم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾.

٦ـ جدال أهل إنطاكية مع رسل عيسى عليه السلام: (١)

ورد هذا الجدال في سورة يس بوحى من الله إلى الرسول محمد صلي الله عليه وسلم أن يضرب مثلاً لقومه بمكة بأهل إنطاكية بالشام وما دار بينهم وبين الرسل من جدال كانت عاقبته إهلاك أهل القرية، والغرض من قصتهم إنذار أهل مكة عباد الأصنام لعلهم يعتبرون.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ* إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ* قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ* قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ* وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ* قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

---

(١) قيل أن إرسال الرسل كان من قبل الله، لأن ظاهر إسناد إرسالهم إلى الله في الآية (أرسلنا) يدل عليه، ولكن هذا القول ليس قاطعاً، لاحتمال أن يكون إرسالهم من قبل عيسى بأمر الله كما تعددت الروايات التي تؤيد ذلك.

وقد جرى هذا الحوار على النحو التالي:

أرسل عيسى عليه السلام إلى أهل إنطاكية بأمر ربه رسولين يدعوانهما إلى عبادة الله وحده- وكانوا يعبدون الأصنام، والرسولان: هما يحبى ويونس، وقيل غيرهما، فكذبوهما فأرسل إليهم رسولاً ثالثاً يعزز الرسولين ويقويهما ويثبتهما في دعوتهما وهو "شمعون" فقالوا لأهل إنطاكية إنا إليكم مرسلون لندعوكم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام.

قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، لا مزية لكم علينا تفضلكم وتوجب اختصاصكم بما تدعونه من الوحي والرسالة، وما أنزل الرحمن من شيء مما تدعون وما أنتم إلا تكذبون وما نحن لكم بمؤمنين، وظاهر قولهم "وما أنزل الرحمن" يدل على إقرارهم بوجود الرحمن، ولكنهم ينكرون رسالة الرسل الثلاثة ويتوسلون بالأصنام لتقربهم إلى الله زلفى.

قال الرسل لمكذبيهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ أي أنهم استشهدوا بعلم الله تعالى بأنهم رسل وكفى بالله شهيداً، كما استشهد محمد صلي الله عليه وسلم بعلم الله بنزول القرآن من عنده لما قال كفار قريش: إن هو إلا أساطير الأولين. قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وفى هذا تحذيرهم معارضة علم الله، فكأن الرسل قالوا للمكذبين: ربنا الذي يؤيدنا بالمعجزات يعلم إنا إليكم لمرسلون ولستم أنتم لتكذيبكم بالآيات البينات. وما علينا من جهة ربنا إلا تبليغ

الرسالة تبليغاً ظاهراً مؤيداً بالآيات الشاهدة على صحة رسالتنا وقد أدينا واجبنا نحوكم. روى أنهم أبرءوا الأكمه والأبرص وأحيوا الميت، وأنهم فعلوا خوارق للعادات غير ذلك. [1]

ولما أعيت المكذبين الحجج وضاقت عليهم الحيل قالوا للرسل: إنا تطيرنا بكم[2] أي تشاءمنا بوجودكم بيننا بسبب ما تدعونا إليه لئن لم تنتهوا عن هذه الدعوة لترجمنكم بالحجارة أو ليمسنكم منا عذاب أليم، قال الرسل رداً عليهم "طائركم معكم" أي سبب شؤمكم معكم وليس من قبلنا، وهو فساد عقيدتكم وسوء أعمالكم، أئن ذكرتم ووعظتم ووجهتم إلى الخير والفلاح وإلى الحق المبين تتطيرون وتتشاءمون وتتوعدوننا بالرجم أو العذاب الأليم؟ إن أمركم لعجيب. وإن عنادكم لشديد، بل أنتم قوم مسرفون ومتجاورون الحد في العصيان والكفر والتعنت، وليس سبب شؤمكم تذكيركم ودعوتكم إلى ما فيه سعادتكم في الدنيا وفي الآخرة.

نصح حبيب النجار لقومه المكذبين:

ولما بلغ حبيباً النجار نبأ هؤلاء الرسل جاء مسرعاً إلى قومه من أقصى مكان في المدينة التي هي إنطاكية ونصح لقومه باتباع الرسل

---

(1) الروايات في تفسير الألوسي والقرطبي والبيضاوي، هذا وعدم ذكر معجزة الرسل في القرآن ليس دليلاً على عدم وقوعها، لأن القرآن لم يذكر جميع معجزت السل كمعجزة شعيب التي لم يذكرها.

(2) أصل التطير التفاؤل بالطير البارح والسائح ثم عم التفاؤل والتشاؤوم وكانت العرب إذا أرادت المضى لمهم مرت بمجاثم الطير وأثارتها لتعلم هل بمضى في مهمها لو ترجع فهي الشارع عن ذلك فقال لا هام ولا طيرة.

وتصديقهم لأنه كان مؤمناً برسالتهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده الذي فطره وفطرهم وإليه يرجعون بعد موتهم وسيحاسبهم على أعمالهم وقال: يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً على تبليغ الدعوة وهم مهتدون إلى الحق وثابتون على الدعوة إلى عبادة إله واحد وإلى طريق مستقيم وكان متلطفاً في نصحه وإرشاده لقومه إذ عرض إرشاده في معرض المناصحة لنفسه والإخلاص لهم، فقد عرض عليهم ما اختاره لنفسه كما في قوله "ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون"؟! أي أن الذى يستحق العبادة هو الذي من صفاته الخلق والتقدير وعقب على ذلك بإنذارهم وتخويفم من عقاب الله الذى إليه مأواهم ومرجعهم، ثم أنكر أن يتخذ من دون الله آلهة كأصنامهم التي لا تدفع عنه ضراً يصيبه الله به ولا تغني عنه شفاعتهم شيئاً، وعقب ذلك بقوله: (إنى أن اتخذت إلهاً غير الله إذا لفي ضلال مبين) ومعنى هذا أن كل من يعبد غير الله في ضلال مبين، ثم أعلن إيمانه بعد ما كان يكتمه فقال غير مبال بتهديدهم ووعيدهم "إني آمنت بربكم فاسمعون".

العاقبة:ـ

وكانت عاقبة المكذبين أن أخذتهم صيحة واحدة أخمدت أنفاسهم وقضت عليهم جميعاً في أسرع من لمح البصر كما قال تعالى (إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةًوَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ).

وكانت عاقبة مؤمن آل يس الشهادة ودخول الجنة كما قال تعالى: (قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ المُكْرَمِينَ) فكان واعظاً لقومه حياً وميتاً، وهذا هو جزء من الإيمان الحق والدفاع عنه، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، فهل من مدكر؟

٧ـ حرية المرأة في جدالها مع أعظم الناس:ـ

من نماذج الجدال في القرآن التي تدل على حرية المرأة في الإسلام جدال خولة بنت ثعلبة الخزرجية التي جادلت الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم في شأن الرجوع إلى زوجها أوس بن الصامت بعد أن ظاهر منها وحرمها على نفسه. فلما ذهبت إلى الرسول صلي الله عليه وسلم قالت: يا رسول الله: (إن زوجي قال لي: أنت على كظهر أمي) وكان هذا الظهار من أشد أنواع الطلاق في الجاهلية، لأنه يحرم الزوجة على زوجها كتحريم الأم على ولدها، ولكني أريد الرجوع إليه.

قال لها النبي صلي الله عليه وسلم: ما أوحى إلى في هذا شيء "وما كان النبي ليقضي بأمره، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى".

ولكنها استمرت تحاوره وتجادله وتبسط مأساتها وتقول: يا رسول الله إن لي منه صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلى جاعوا.

فقال لها النبي: ما أوحى إلى في هذا شيء.

فقالت: يا رسول الله أوحى إليك في كل شيء وطوى عنك هذا؟!

قال لها النبي: هو ما قلت لك.

فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي، وفراق زوجي وبن عمي بعد أن كبرت سني، ونقضت له بطني وما زالت تتضرع إلى الله بالدعاء حتى استجاب لدعائها وهو سميع قريب مجيب الدعاء، فأنزل الآيات الأربع الأولى من سورة المجادلة على نبيه صلي الله عليه وسلم رحمة ورأفة بها، وجعل فيها كفارة للظهار وتحلة لزوجها ولكل مظاهر من زوجته كما قال تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ* الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ القَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ* وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ* فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

وهكذا شرعت كفارة الظهار في الإسلام وهي عتق رقبة من قبل أن يتماس الزوجان، إن وجدت الرقبة وإن لم توجد فصيام شهرين متتابعين

على الزوج من قبل أن يتماسا، فإن لم يستطع الصيام فعليه إطعام ستين مسكيناً.

ملحوظة:

ذكر في أول الآية: (قَوْلَ الَتِي تُجَادِلُكَ)، (وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) وهذا يشعر بأن الحوار والجدال هنا بمعنى واحد.

ويؤيد ذلك قراءة (قول التي تحاورك في زوجها) [1] فهو حوار وجدال بالتي هي أحسن واستدرار للعطف والرحمة.

مثال آخر من حرية المرأة في صدر الإسلام:-

روى أن خولة استوقفت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان قد مر بها راكباً ومعه طائفة من أصحابه، وقالت له يا عمر، قد كنت تدعى عميراً، ثم قيل لك يا عمر، ثم قيل لك يا أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت، خاف الموت، ومن أيقن بالحساب، خاف العذاب، وظل عمر واقفاً يسمع كلامها، فقيل له يا أمير المؤمنين، أتقف لهذه العجوز هذا الموقف؟! فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لازلت إلا الصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة

(1) القراء الثانية في تفسير القرطبي.

بنت ثعلبة، سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟![1]

وهكذا كانت حرية المرأة المسلمة في أمور الدين، وفي تقويم الزعماء ما دامت هي على خلق عظيم. ومن أمثلة حرية المرأة في الإسلام منحها حقها في اختيار زوجها ثيباً كانت أو بكراً ما دامت راشدة تدري مصلحتها. وليس لأبيها أو وليها أن يجبرها على زواج من لا تريده، بل عليه أن يستشيرها ويتبادل معها الرأي كما قال النبي صلي الله عليه وسلم لا تزوج الأيم حتى تستأمر، ولا البكر حتى تستأذن.."[2]وقد يتطلب تبادل الرأي معها حواراً حراً في أسباب رغبتها أو أسباب رفضها لزوج معين.

ولقد بلغت حرية المرأة المسلمة في زواجها أن ذهبت خنساء بنت خدام إلى النبي صلي الله عليه وسلم وكانت ثيباً فزوجها أبوها بمن كرهته، ولما أبدت للرسول كرها لهذا الزوج، رد الرسول زواجها.

وكذلك ذكرت فتاة بكر للرسول صلي الله عليه وسلم أن أباها زوجها وهي كارهة فخيرها الرسول صلي الله عليه وسلم أى جعل لها الخيار في فسخ عقد الزواج أو إبقائه.

---

(1) القصة في تفسير القرطبي.
(2) الأيم: هي الثيب التي طلقها زوجها أو توفى عنها واستئمارها هو طلب أمرها بعد استشارتها.

تعقيب:-

يتبين من هذه القصص عناية الإسلام بحرية المرأة واعترافه بشخصيتها وحقها في مراجعة زوجها فيما أخطأ وفي مراجعة أبيها أو ولى أمرها فيما أبرم وحده من خطبتها وزواجها بغير استشارتها واستئذانها في الوقت الذي كانت المرأة في الجاهلية تورث كالمتاع، وتشترى كالسلع وتباع.

من آداب المحاورة في الإسلام ألا تذكر المرأة مساويء زوجها، وخاصة إذا كان بينه وبينها ما يرجي وصله ويرأب صدعه، كرباط الزوجية، كما لم تذكر خولة سر ظهار زوجها منها حتى لا توسع شقة الخلاف بينهما، وتنتج عكس المطلوب.

ومن آداب الحديث في الإسلام أن يخاطب كل إنسان بما يليق بمقامه ولقبه، كما خاطبت خولة النبي صلي الله عليه وسلم بقولها كلما خاطبته: يا رسول الله، ولم تناده باسمه كما ناداه أهل الجاهلية الذين كانوا لا يعقلون.

الحاجة بين وفد نجران ومحمد صلي الله عليه وسلم

لما أرسل محمد صلي الله عليه وسلم كتابه إلى أسقف نجران أبي حارثة باليمن يدعوه إلى الإسلام فإن أبى فهو مخير بين الحرب والجزية، استشار أصحابه وموضع سره من زعماء نصارى نجران، فاتفقوا على أن

يذهب إلى الرسول وفد منهم[1] يحاجونه ويجادلونه في شبهاتهم وبخاصة فيما يتعلق منها بعيسى عليه السلام.

وتذكر عدة روايات أن الآيات من أول سورة آل عمران إلى آية ٨٣ من السورة نزلت في الحاجة بين الرسول ووفد نجران.

ولما كانت هذه الآيات كثيرة يحتاج تفسيرها إلى كتاب مستقل، فقد اقتصرت على أشدها مناسبة لموضوع هذا الكتاب، واخترت منها ست آيات هي قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ* الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ المُمْتَرِينَ* فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحَقُّوَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ* فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ* قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

ولما ذهب وفد نجران إلى المدينة والتقوا بالرسول صلي الله عليه وسلم جرت بينهم الحاجة التي منها هذه الآيات:

---

[1] روى أن عدد أفراد رفد نجران كان ستين بينهم العاقب أميرهم والسيد وأبو حارثة (تفسير القرطبي).

سأل وفد نجران النبي صلي الله عليه وسلم كيف تقول إن عيسى عبد الله وكلمته؟ أرنا عبداً خلق من غير أب.

قال لهم النبي صلي الله عليه وسلم القول الحاسم في حقيقة عيسى وطبيعة خلقه، كما تلقى الوحي من ربه "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون" يعنى إن كانت ولادة عيسى من غير أب عجيبة وغريبة لأنها مخالفة لسائر البشر فأعجب منها وأغرب منها ولادة آدم من غير أب ولا أم والسبب هو قدرة الله وإرادته، لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فعيسى خلق بكلمة كن فهو كلمة الله كما أن آدم كلمة الله، وعيسى روح من الله كسائر البشر نفخ فيه من روحه وأنشأه خلقاً آخر.

وكما نص القرآن على أنه روح منه نص كذلك على أن آدم نفخ فيه من روحه فقال تعالى في خلق آدم من سورة الحجر (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) ونص القرآن كذلك على أن الله خلق ذرية آدم كلها بالنفخ من روحه فقال تعالى في سورة السجدة (وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه) كما قال تعالى في خلق عيسى في سورة التحريم (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا).

وإذن يكون النفخ من روح الله في خلق الإنسان هو العنصر المشترك في خلق الناس جميعاً لا فرق بين نبي ولا غيره "ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل".

أما خلق عيسى من غير أب فهو دليل على قدرة الله الذى لا يعجزه شيء، فكما خلق عيسى من غير أب، فقد خلق آدم من غير أب ولا أم، وقد خلق حواء من غير أم. وقد خلق سائر البشر من أب وأم، وهذه أقسام أربعة لا يتصور العقل غيرها، ولا يستطيع غير الله فعلها سبحانه وتعالى وهو على كل شيء قدير.

وبعد هذه الحجة القاطعة، والبيان الشافي الكافي يثبت الله نبيه على الحق الذى أوحى إليه فيقول تعالى: (الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ) ليقطع بذلك الطريق على الشاكين في الأمر أو الكائدين الماكرين. ثم أوحى الله لنبيه أن يدعو من يحاجه ويجادله في شأن عيسى بعد ظهور الحق وإزاحة الشبهات إلى اجتماع كبير بينه وبينهم ويبتهل[١] الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذبين من المتحاجين. فلما دعاهم النبي إلى المباهلة خافوا وامتنعوا، لأنهم أدركوا بعد ظهور الحق وقوة الحجة أنهم هم الكاذبون، روى أن كبيرهم قد نهاهم عن المباهلة وأعلمهم أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادي ناراً، لأن محمداً نبي حقاً وقد جاءكم بالفصل في أمر عيسى.

---

(١) أصل الابتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره.

ثم يؤكد قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ صدق الوحي والوحدانية التي تدور حول الحاجة كما ينذر قوله تعالى ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ الذين يتولون ويعرضون عن الاستجابة للحق بعد ما تبين بأن الله عليهم بهم وبإفسادهم بسبب كفرهم وشركهم وسيحاسبهم حساباً عسيراً.

ولما كان التوحيد هو المنقذ من هوة الضلال والإفساد، فقد أوحى إلى النبي صلي الله عليه وسلم أن يدعو أهل الكتاب إلى كلمة سواء بينه وبينهم، هي عبادة الله وحده، وعدم الإشراك به، وألا يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فإن أعرضوا عن دعوته ولم يستجيبوا فليتركوهم على ضلالهم وليقولوا اشهدوا بأنا مسلمون أي منقادون ومذعنون لدين الإسلام وأحكامه، بعد أن لزمتكم الحجة وظهر الحق.

تعقيب:ـ

تنص هذه الآيات على أن الإسلام يدعو إلى التحرر المطلق من العبودية لغير الله، وينهي الناس أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، كما اتخذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون.

وهذه إحدى خصائص الإسلام التي تميز منهج حياة المسلمين وعبادتهم من مناهج حياة غيرهم وتدل هذه الآيات على أن دعوة الرسول صلي الله عليه وسلم قامت على الحجة والبرهان، والتدرج في الحجاج

من حسن إلى أحسن بالتي هي أحسن، بضرب المثل تارة، ودعوة الحاجين إلى المباهلة تارة، ثم دعوة أهل الكتاب عامة إلى كلمة سواء بين الجميع، بحيث لا يعلو بعضهم على بعض، ولا يتفاضل المسلمون على أهل الكتاب، بل الجميع سواء فيما دعت إليه الكتب السماوية وهي عبادة الله وحده، وعدم الإشراك بعبادته أحداً، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ولو كان ملكاً أو نبياً أو رسولاً، ولا شك أن هذه دعوة حق وحرية، ومساواة وعدل لا يأباها إلا ظالم لنفسه. وفي هذه الآيات نفى ألوهية عيسى، وإثبات أنه عبد الله مثل آدم وغيره من البشر، كما يعضد هنا قول الرسول أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء إخوة، أبناء علات أمهاتهم شتى، ودينهم واحد[1] أي أنهم إخوة في الدين يجمعهم أصل واحد هو توحيد الله كالأب الواحد للأسرة التي اختلفت أمهاتها، لأن الأنبياء وإن اتفقوا في أصل الدين فهم مختلفون في الفروع والشرائع كما قال تعالى (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةًوَمِنْهَاجاً) ويزيد ذلك توكيد أو تأييداً قوله تعالى في سورة الشورى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحاًوَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) فإقامة الدين هي الأصل المشترك بين جميع الأنبياء وهو التوحيد، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ).

(1) هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود.

ولما كان الدين الإسلامي هو خاتم الأديان المؤيدة بمعجزة القرآن المنزل على خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وهو الكتاب المهيمن على جميع الكتب السماوية والمصدق لها، والمحفوظ من التحريف والتبديل، فقد وجب اعتناقه والإيمان بما فيه وهو القائل (إن الدين عند الله الإسلام) أي لا دين يرضي عنه الله غير الإسلام وهو التوحيد والتدرع بالشرع الذى جاء به خاتم الأنبياء، ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم في سورة آل عمران (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) أي إن جادلك وفد نجران في أن الدين عند الله هو الإسلام فقل لهم: أٍلمت وجهي لله أى أخلصت نفسي وجملتي لله لا أشرك به، لأن الإسلام هو الدين القويم الذي قام بالحجج واعتصمت به جميع الرسل، وقد أسلم معي من اتبعني فهل أسلمتم بأهل الكتاب ويأيها الأميون من غير أهل الكتاب كما أسلمنا بعد أن وضحت لكم الحجة والبرهان؟ فإن أسلمتم فقد اهاديتم وأنقذتم أنفسكم من الضلال وظلمات الكفر والشرك، وإن أعرضتم وتوليتم فما على إلا البلاغ وقد بلغتكم والله بصير بالعباد: وهو الذي يجازيهم على أعمالهم.

٩ـ جدال أهل الكتاب للنبي صلي الله عليه وسلم:ـ

لقد جادل أهل الكتاب (اليهود والنصارى) محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين فزعموا أن دينهم هو الهدى وقالت اليهود "لن يدخل

الجنة إلا اليهود" وقالت النصارى "لن يدخل الجنة إلا النصارى" قال تعالى مكذباً للفريقين "تلك أمانيهم" أي تمنياتهم الكاذبة ثم قال تعالى لهم "قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين" في زعمكم أنكم ستدخلون الجنة. ثم نفى القرآن قولهم وقرر أنه لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجهه لله أي أخلص له بقلبه وجملته من غير شرك خفي أو جلي بشرط أن يكون محسناً في عمله كما قال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).

ولما تنازع الفريقان إبراهيم عليه السلام وادعت اليهود أنه كان يهودياً وادعت النصارى أنه كان نصرانياً "وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا" كذبهم القرآن بقوله (يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ[1] وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين" أمثالكم فهو بريء منكم لأنكم لم تتبعوه "إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين قل لهم يا محمد "بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين" ونحن لا نتبع اليهودية ولا النصرانية كما تطلبون، فتعالوا معنا نتبع ملة أبينا وأبيكم إبراهيم وهي ملة الإسلام القويمة التي أمره الله بها إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين".

---

(1) وهذه الآية تشير إلى تاريخ عهد كل من إبراهيم وموسى وعيسى لأن زمن موسى كان بعد زمن إبراهيم بألف سنة وما حدثت اليهودية إلا بنزول التوراة على موسى، وما حدثت النصرانية إلا بنزول الإنجيل على عيسى بعد موسى بألفى سنة.

وهذه مواجهة صريحة من النبي صلي الله عليه وسلم لأهل الكتاب، وحجة قاطعة، ودعوة عادلة إلى اتباع ملة إبراهيم الصحيحة وهي الإسلام.

ثم وجه الخطاب إلى المسلمين أن يعلنوا أن الدين الحق هو دين الأنبياء جميعاً، إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، وهو الدين الإسلامي الذى يجمعهم جميعاً تحت راية واحدة هي راية التوحيد لا يفرقون بين أحد من الرسل فإن آمن من أهل الكتاب بما آمن به المسلمون فقد اهتدوا حقاً، إلى الصراط المستقيم فالدين الإسلامي هو هدى الله الحق وليس الدين اليهودي ولا النصراني كما زعمتم. وإن توليتم عن الإسلام فإنما أنتم في شقاق ونزاع وعداء للحق وللهدى، والله حسبنا وكافينا شركم وهو نعم الوكيل. قال تعالى في سورة البقرة موجهاً الخطاب للمسلمين (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَاوَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِي مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِي النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ* صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ* قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ* أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).

وقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ تأكيد بأن الإسلام هو المقبول عند الله وهو الدين الذي ارتضاه لعباده المسلمين كما قال في سورة المائدة: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ وهو الدين الذي صبغ الله به قلوب المسلمين بصبغة الإيمان فوقر في القلوب وبدت آثاره في الأعمال الصالحة كالعبادات وحسن المعاملة، وغيرها. وهل هناك صيغة دينية أحسن من صبغة الله الفطرية؟ والجواب سلبي.

ثم تمضى الحجة القاطعة إلى نهايتها الحاسمة ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ... الخ﴾ أي ليس لكم بعد ما سمعتم من الحجج مجال للمحاجة والجدال في وحدانية الله وربوبيته فهو ربنا وربكم وكل منا مجزى بعمله ومحاسب عليه "ونحن له مخلصون" لا نشرك به شيئاً.

ثم ينتقل الجدل إلى مجال آخر بسد على أهل الكتاب كل مجال للحجة أو الزعم الكاذب في قوله تعالى ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ... الخ﴾ وقد جهلتم وغاب عنكم أن هؤلاء الأنبياء كانوا أسبق من موسى وعيسى زمنا كما سبق بيانه وختمت هذه الحجة بسؤال إنكاري يقطع الألسنة الكاذبة والادعاءات الباطلة "قل" يا محمد لأهل الكتاب "أأنتم أعلم أم الله"؟ وأنتم تعلمون في التوراة والإنجيل أن دين جميع الأنبياء أساسه التوحيد والإسلام لله وقد بشرت الكتب والرسل بنبى سيأتي من بعدهم حتى ذكر اسمه عيسى عليه السلام إذ قال: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ ﴿ودينه الإسلام وهو خاتم الأنبياء ولكنكم كنتم ما علمتم ولم تشهدوا بالحق بل أضللتم ولبستم وأخفيتم

وجادلتم بالباطل وأنكرتم شهادة الله لإبراهيم بالبراءة من اليهودية والنصرانية وبأنه على الحنفية الإسلامية، "ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله" وزعم خلاف ما في علم الله وفي كتبه المنزلة وبشهادة رسله الصادقين" أي لا أحد يظلم منكم وبعد ما سيقت هذه الحجج الدامغة التي أبطلت زعم أهل الكتاب وأثبتت المفارقات الواضحة بينهم وبين إبراهيم وأتباعه ختمت الحاجة بفصل الخطاب ونهاية الجدال "تلك أمه قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون".

جدال كفار قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم في القرآن

لما نزل الوحي بالقرآن من عند الله على محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى في سورة الشعراء ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ[1]* وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾[2] تحير كفار قريش في كيفية تكذيبه، هل يكذبون محمداً صلى الله عليه وسلم وهم يقرون بأنه الصادق الأمين أو يكذبون القرآن العظيم؟ وإذا أرادوا تكذيب القرآن فبأي شيء يكذبونه، وهو يشتمل على أمور غيبية، وعلوم دنيوية لا يعلمها البشر، هذا إلى أسلوبه المعجز، وتناسق آياته، وتجسيدها للمعاني البعيدة بضرب الأمثال المحسة تجسيداً تكاد تراع العين، وتسمع صوته الأذن، وتتفتح له أبواب

([1]) الروح الأمين: هو جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على قلب محمد صلي الله عليه وسلم.

([2]) زبر الأولين: سائر الكتب السماوية التي نزلت على الرسل.

القلوب فتستقر فيه وتطمئن به ويؤيد ذلك ما وصفه به الوليد بن المغيرة المخزومي وهو من صناديد العرب وخبرائهم بلغتهم. فقد روى أنه بعدما سمع الرسول يقرأ سورة (حم) السجدة ذهب إلى قومه وقال: لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى[1]عندئذ ثارت ثائرة قريش على الوليد واتهموه بمخالفة دينه وعقيدته وتصدى له بن أخيه أبو جهل وجالسه مطرقاً حزيناً ثم كلمه عاطفياً ومصلحياً ذاتياً حتى جعله يعدل عن حقيقة ما رأى وما سمع ووصف القرآن يوصف يناقض وصفه الأول الذي قال فيه "وما هو من كلام الإنس والجن" فقال: (إن هذا إلا سحر يؤثر[2]، إن هذا إلا قول البشر) ففي الوصف الأول نفى أن القرآن من كلام الإنس يعني البشر وفي الوصف الثاني قال إنه قول البشر: والوصف الأول هو الصادق لأنه كان بمحض إرادته، وتذوقه لحلاوة لغته، والوصف الآخر كان بتحريض من بن أخيه أقرب الناس إليه وآثرهم عنده فهو قول كاذب صادر عن غرض دنيوي.

ثم أخذ هؤلاء الكفار ومنهم أبو سفيان، والوليد، والنضر، وعتبة، وشيبة، وأبو جهل يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن، وائتمروا فيما بينهم وأسروا النجوى، ثم تمخض مؤتمرهم عن أقوال كاذبة يناقض بعضها بعضاً، فماذا تقولوا على الرسول والقرآن، وبماذا جادلوه

---

[1] من تفسير البيضاوي في سورة المدثر.
[2] يؤثر: يروي ويتعلم.

بالباطل؟ هل يكذبون الرسول وهم يعلمون أنه الصادق كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ نزلت لما قال أبو جهل ما نكذبك يا محمد وإنك عندنا لمن الصادقين وإنما نكذب ما جئتنا به[1] وقال الوليد بن المغيرة حين اجتمع كفار قريش للتشاور معه: تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون إنه كاهن، فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً؟ فقالوا: لا، فقال ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ ففرحوا بقوله وتفرقوا عنه متعجبين، نعم إنه السحر الحلال المدعم بالحق والبرهان والذي ينفذ إلى القلوب، ويتجاوز الآذان، ولقد صدقت الحكمة العربية القائلة: إن من البيان لسحرا.

ثم أقبل بعضهم على بعض يتساءلون "وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون"؟ أي تشاوروا وتآمروا سراً في استنباط ما يكذب الرسول ويظهر فساد أمره للناس جميعاً، فقالوا ما هذا الذي يدعي الرسالة إلا بشر مثلكم لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً من الملائكة، وعلى ذلك يكون ما جاء به من المعجزات كالقرآن سحر فأنكروا حضوره وقالوا كيف تجيئون إلى السحر وتتبعونه وأنتم تبصرون أنه إنسان مثلكم؟ ثم أضربوا عن قولهم هو سحر وانتقلوا إلى ما هو أفسد وأضعف من السحر فقالوا "بل هو أضغاث أحلام، بلى افتراه، بل هو شاعر، فإن نسبة القرآن إلى السحر فاسدة،

---

(1) في تفسير البيضاوي.

وكون القرآن أضغاف أحلام أفسد من السحر، لأن السحر شبيه بالإعجاز من وجه وهو خرق العادة بخلاف أخلاط الأحلام، وأفسد من أخلاط الأحلام تعمد الافتراء والكذب، وأفسد منه نسبة الشعر إلى محمد وهو المعلوم عند العرب والعجم بأنه لم يكن شاعراً قط وليس القرآن بشعر ولا بقول شاعر ولا كاهن، لأن الشعر أعذبه أكذبه يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها ويغريه بها (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون)؟ ثم ختموا حوارهم بطلب وتحد عجيب قالوا: "فليأتنا" محمد (بآية كما أرسل الأولون) مثل آيات موسى وعيسى".

فماذا قال لهم الرسول؟ "قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم؛" فلا يخفى عليه ما تسرون وما تعلنون في مؤمراتكم وتدبيراتكم ضدي وضد القرآن. وقال تعالى: (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ) أي أنهم لا يؤمنون لوجئتهم يا محمد بما اقترحوا من الآيات، لأنهم أعند وأشد عناداً من أهل قرية أهلكناها لما لم يؤمنوا بعد الإتيان بالآيات التي اقترحوها، ولو جاءتهم الآية ولم يؤمنوا لاستوجبوا عذاب الإهلاك كغيرهم.

كما قال تعالى في سورة الأنعام: (وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ* وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) وجاء في سورة الشعراء آخر مفحم لكفار قريش في قوله تعالى: (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ

عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ* فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ) والمعنى أو لم يكن ذكر القرآن في كتب الأولين لهم آية على صحته أو نبوة محمد أن يعرفه علماء بني إسرائيل بنعته المذكور في كتبهم، ولو نزلنا القرآن على بعض الأعاجم بلغته زيادة في إعجازه أو بلغة العجم فقرأه الرسول عليهم ما كانوا به مؤمنين استكباراً وعناداً أو لعدم فهمهم لغة العجم واستنكافهم أن يتبعوهم.

وإذا كانت آية القرآن الخالدة لم يؤمن بها كفار قريش وهم أعلم الناس بها لأنها جاءت بلغتهم العربية لإعجازهم عن الإتيان بمثلها وقد عجزوا فكيف يؤمنون بآية سرعان ما تذهب بذهاب رسولها كآيات موسى وعيسى وغيرهم من الرسل؟ ولذلك واجه النبي صلي الله عليه وسلم أقوالهم التي يرددها بعض الجاهلين أو المتجاهلين في عصر العلم والتكنولوجيا بما أوحى إليه من حجج دامغة وقول فصل كما في قوله تعالى من سورة الفرقان: (قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِوَالأَرْضِ) وفي هذا الرد من الإعجاز والإيجاز ما لا يمن أن يأتي بمثله أحد، فكأنه قال: كيف تنسبون القرآن للأساطير تارة، وللإفك والكذب تارة، وللسحر أو للشعر تارة، ولأضغاث الأحلام تارة أخرى؟!! إن هذا القرآن قد اشتمل على أسرار مكتوبة غيبية لا يعلمها جن ولا إنس ولم تذكر في كتب سابقة وإنما يعلمها عالم الغيب والشهادة. علام الغيوب، فالقرآن هو الذي أنبأ بعد هزيمة الروم في حربها مع الفرس بأنها ستغلب فارس بعد بضع سنين. وقد تحقق ما أنبأ به قبل وقوعه، والقرآن هو الذي أنبأ بأن كفار مكة سيهزمون ويولون الدبر لما قال أبو جهل يوم بدر إنا جمع

منتصر حينما رأى كثرة عددهم وعدتهم فنزل قوله تعالى في سورة القمر (سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) كما نزل قوله تعالى في أول سورة الروم (غُلِبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بِضْعِ سِنِينَ)[1] وقد غلبت الروم فارس يوم الحديبية وتحقق ما أنبأ به القرآن قبل وقوعه في بضع سنين. هذا إلى ما أخبر به القرآن من قصص الأمم الماضية التي ذكر بعضها في التوراة والإنجيل فنزل القرآن مصدقاً لها. ولي ناقلاً لها، لأن النبي كان أمياً لا يعرف الكتابة والقراءة، وإن قيل تعلم النبي القرآن حفظاً لا كتابة وقراءة كما يحفظ الأعمى القرآن، قلنا ومن الذى حفظه القرآن روسيا اسمه جبر غلام عامر بن الحضرمي كان يصنع السيوف بمكة وكان يقرأ التوراة والإنجيل هو وزميله يسار هو أو هما اللذان علماً النبي صلى الله عليه وسلم القرآن لأنه كان يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه، فإن قالوا مثل ما قال كفار مكة، قلنا لهم.. اقرءوا رد الله عليهم هذا الرد الحاسم فقد قال تعالى في سورة النحل: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) فقد جاء في هذه الآية إبطال ما زعموه من عدة وجوه:

أحدها: أنه لو فرض أن الى علم محمداً صلى الله عليه وسلم بشر رومي كما زعمتم وألحدتم إليه قولكم فقد بطل زعمكم، لأن الذي ألحدتم إليه القول واسندتموه إليه رجل أعجمي اللسان وهذا القرآن عربي مبين تفهمونه بقليل من التأمل وأما اللغة الأعجمية فلا يفهمها

---

(1) البضع في اللغة معناه ما بين الثلاث إلى التسع وقد وقع نصر الروم على الفرس بعد سبع سنين.

واحد منكم ولو فرض أن أحدكم يفهمها فلن يكون فهمها سهلاً عليكم كما تفهمون لغتكم العربية. والوجه الثاني لإبطال زعمكم: أنه لو فرضنا أن النبي صلي الله عليه وسلم تعلم من المعلم معنى القرآن باستماع كلامه ومعناه دون تلقي لفظه ومبناه، لأن المعلم أعجمي والمتعلم عربي والقرآن عربي فكيف صيغ القرآن في أساليبه الفصيحة المعجزة للعرب والعجم والجن والإنس وقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله في أكثر من آية منها في سورة يونس قوله تعالى لنبيه: (قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) في ادعائكم أن النبي افتراه أو أنه أساطير الأولين اكتتبها" ثم أضرب عن أقوالهم الكاذبة ونفاها نفياً قاطعاً بعد عجزهم عن الإتيان بسورة واحدة من مثله وبين أن هناك سبباً ثالثاً لتكذيبهم وهو جهلهم وعدم إحاطتهم بعلمه وتأويله كما قال تعالى (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِوَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) أي أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في بعض علومه مدة طويلة، فكيف تعلم النبي جميع علوم القرآن من غلام سوقي سمع منه في بعض أوقات مروره عليه كلمات أعجميه؟!

ولو فضنا أن الذي علمه غير أعجمي فهذا ظاهر البطلان أيضاً، لأن العرب عجزوا جميعاً هم والجن عن الإتيان بمثله لا في اللفظ ولا في المعنى. ولا يزال القرآن المصدر الصحيح لعلوم الدنيا قديمها وحديثها حاضرها ومستقبلها كما قال تعالى في سورة فصلت (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ) ولا يزال علماء النبات يبحثون ويدرسون ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) ولا يزال الأطباء

يبحثون في كيفية خلق الأجنة التي أشار إليه القرآن في كثير من سورة ومنها قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾ هذا إلى علوم الفلك والرياضيات التي تساعد علماء العصر الحديث على المخترعات العجيبة، ولا يزال علماء التشريع يقتبسون من نور القرآن ما يرشدهم إلى حل المشكلات التي تعترضهم فيما يجد تبعاً لتطور الحية واختلاف الزمان سواء في المعاملات المالية أو في النظم الاجتماعية أو غيرها مما تتطلبه الحياة الحديثة مما لا يمكن حصره في هذا الباب بل لا يمكن الإحاطة به في جيل من الأجيال، ومن الذي يدعى الإحاطة بعلوم القرآن ولما يأته تأويله إن هو إلا ذكر للعالمين. وجملة القول إن القران من عند الله نزل به الروح القدس جبريل عليه السلام بالحق على خاتم الأنبياء ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين"، وهو الدستور الجامع لخيري الدنيا والآخرة، تستمد منه منهج الحياة الطبية، ونظم المجتمع الصالح، وقواعد التعامل بين الأفراد والأمم ويستمد منه قواعد السلوك الخلقي القويم.

الباب الثاني

الحوار والتخاصم في الحياة الآخرة

ومن أنباء الغيب التى كرر القرآن ذكرها، وحث على الإيمان بها وقرنه بالإيمان بالله، الإيمان باليوم الآخر[1] لأن القرأن كتاب كامل للدنيا وللآخرة يربط بينهما، ويبين صلة إحداهما بالأخرى فكما ذكر الحوار والجدال في الدنيا ذكر الحوار والتخاصم في الآخرة. ولكن هناك فرقاً بين الحوارين، فالحوار في الدنيا يدور حول إثبات الحق وإبطال الباطل، والحوار في الآخرة يدور حول الحسرة والندامة على ما فات في الدنيا من الإيمان بالبعث في اليوم الآخر ومن ترك الأعمال الصالحة وطاعة الله العلي العظيم وطاعة رسله الأكرمين، ومن أنباء القرآن أن الناس سيعرضون للحساب يوم القيامة عرضاً يكشف كل ما كانوا يخفون من أسرار وأنه سيجازى كل بعمله، فمن آمن وعمل صالحاً دخل الجنة، وعاش عيشة مرضية، ومن كفر بالله واليوم الآخر عذب في نار جهنم عذاباً شديداً لا ينجيه منه تحسر ولا تندم، ولا مال ولا بنون ولا سلطان ولا جاه، كما أخبر القرآن بذلك وصور حال الفريقين تصويراً رائعاً في مشهدين: أحدهما مشهد المؤمن الذى يفيض وجهه بشراً وسروراً، ويباهي بكتاب أعماله الصالحة ونجاحه وفوزه بالجنة بسبب إيمانه بالله وباليوم الآخر وأعماله الصالحة في حياته الدنيا. والآخر مشهد الكافر

---

(1) يراجع إثبات وقوع اليوم الآخر في كتاب "دليل الحيران في آيات من القرآن" للمؤلف.

الذى يكاد يتميز من الغيظ من سوء أعماله، ويتحسر على ما فاته من الإيمان والأعمال الصالحة في حياته الدنيا، فلا ينفعه ندم، ولا تنجيه حسرة، لأن الدار الآخرة دار جزاء لا دار عمل ورجاء.

وها كم أحد المشاهد التي عرضها القرآن أكثر من مرة ليبين موقف كل من الكافر والمؤمن يوم القيامة، قال تعالى في سورة الحاقة (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ* فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ* إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ* كُلُواوَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه، ياليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه، خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحض على طعام المسكين، فليس له اليوم ها هنا حميم، ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون).

ففي هذا المشهد عرض البشر على ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء، وهذا يذكر بعرض الجند على أميرهم إذا اصطفوا أمامه فتفقد أحوالهم، وأحصى أعمالهم، موقف رهيب، وعرض مخيف أمام هيبة الله وجلاله، لا تخفى عليه حالة كانت خافية على الناس، ونتيجة هذا العرض نجاح المؤمن وفرحه بكتاب أعماله الصالحة التي قدمها في حياته الأولى، يؤتاه بيمينه مسروراً ويقول هاؤم اقرءوا كتابي أي خذوا اقرءوا

صحيفة أعمالي إني أيقنت أني ملاق حسابي هذا فعملت بما يرضى الله فأصبحت في نعيم عظيم، في عيشة مرضية وجنة عالية الحس والقدر ثمارها قريبة من يد القاطف لها، ويقال: لأصحاب الجنة تمتعوا وتلذذوا بما فيها من طعام مريء وشراب هنيء وجميع صنوف اللذة والنعيم مما لم تراه العين ولم يخطر على قلب بشر.

أما الكافر الذى يؤتي كتابه وصحيفة أعماله السيئة فحاله

تصم السميع وتعمي البصير ويسأل من مثلها العافية

فهو يتحسر ويندم ويحزن ويجزع ويهلع ويتمنى أن لم يؤت كتاب أعماله، ولم يحي بعد موته لحسابه ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ* يَا لَيْتَهَاكَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي كانت الموتة التي منها في الدنيا هي القاضية على حياتي فلا أحيا بعدها أبدا هذه الحياة المرة الدائمة العذاب، الشديدة العقاب ثم يتذكر حياته الأولى وما كان فيه من مال وجاه وسلطان فيزداد حسرة ولوعة على علم نفعها له في الآخرة فلم تغن عنه من عذاب الله شيئاً، لأنه لم يقم بحق الله فيها فيقول.. ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه. وياليت حال الكافر تقتصر على عذاب واحد، بل عذابه أنواع تخلع قلوب الشجعان، وتذهل عقول ذوي الألباب ومن أنواع هذا العذاب أن معذبوه يديه ورجليه بالقيود والسلاسل ثم يلقى في الجحيم وهي أشد النار تأججاً ثم يحاط بسلاسل طويلة جداً يدخل في طياتها وثناياها.

وكأنه قيل ولم أستحق هذا العذاب يارب؟ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ* وَلاَيَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ﴾ واقتران الحض على إطعام المسكين بالإيمان بالله يدل على أن العطف على المساكين وإطعامهم أصل في سلامة الأخلاق كما أن الإيمان بالله أصل في سلامة العقيدة، وأن سبب تعذيب المعذب شيئان كفره وبخله، فالكفر يدل على خلو القلب من الإيمان، والبخل يدل على خلو القلب من العطف والرحمة والحنان وإذا كان عدم الحض على إطعام المساكين بعذاب من أجله الإنسان فكيف بمن يمتنع عن إطعامهم وكسوتهم؟! ودعوة القرآن للحض على إطعام المساكين هي دعوة إلى التكافل الاجتماعى الذي تمثله الآن الجمعيات الخيرية وغيرها من كل ما يساعد الفقراء ويعينهم على التعليم ويرشدهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم. ويتبين من هذا العرض للحساب يوم القيامة أن مأوى الناس إما الجنة أو النار كما قال تعالى في سورة الروم: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ(1)* وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ وفي مواقف الحساب في اليوم الآخر تجري بين المستكبرين من الرؤساء والمستضعفين من الأتباع محاورات ومحاجات تدفعهم أحياناً إلى التخاصم والتنابذ، والتلاعن كما قال تعالى في سورة العنكبوت في شأنهم: ﴿يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾.

---

(1) يحبرون: أي يسرون سروراً تتهلل به وجوههم.

نماذج من المحاجة

١- ومن نماذج المحاجة في الآخرة تحاج آل فرعون وهم فى نار جهنم واستشفاعهم بخزنتها وعدم استجابتهم لطلبهم كما في قوله تعالى من سورة غافر:

وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟

قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد، وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب، قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى، قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال".

وبيان محاجتهم كالتالي:

قال الضعفاء في الرأي وفي الشخصية من آل فرعون لرؤسائهم المستكبرين في حياتهم الأولى إنا كنا تابعين لكم فيما دعوتمونا إليه في حياتنا الدنيا من الكفر والضلال، فهل أنتم الآن فنون عنا نصيباً من النار بكفها عنا؟

قال المستكبرون لهم كيف ندفع عنكم عذاب النار ونحن عاجزون عن دفعها عن أنفسنا، نحن وأنتم فيها سواء إنا كل فيها وهذا حكم الله بين عباده، بأن يدخل الكافرون النار ولا معقب لحكمه العادل، ولما

يئس الضعفاء من محاجة المستكبرين ويئس المستكبرون مثلهم، التجئوا إلى خزنة جهنم مستشفعين بهم راجين منهم أن يدعوا ربهم ليخفف عنهم يوماً من العذاب. فرد عليهم خزنة جهنم بما ألزمهم الحجة وزادهم قنوطاً ويأساً وتبكيتا لهم على إضاعة دنياهم وتكذب رسلهم إذ قالوا لهم: ألم تأتكم رسلكم بالبينات؟ قالوا بلى قد أتتنا رسلنا بالبينات الواضحة ولكن غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين.

قال لهم الخزنة: (ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أي في ضياع وذهاب، لا يجاب بعد فوات الأوان ونظير هذه المحاجة ما جاء في سورة إبراهيم في قوله تعالى:

(وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) أي من مهرب من العذاب لأننا أضللناكم كما ضللنا وأغويناكم كما غويناً، فاتبعتمونا وقلدتمونا ولم عارضونا فلم تجاهروا بعصيانكم لنا، ولم تهاجروا من أرض فيها ذلكم وهو أنكم وإضلالكم وأرض الله واسعة لهجرتكم، ولن يقبل الله عذر من يعيشون مستضعفين في أي أرض، بل وبخ المستضعفين وأوعدهم بالعذاب في نار جهنم كما قال تعالى في سورة النساء: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً).

وفي الحديث النبوي الشريف "من فر بدينه من أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجبت له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام".[1]

التحاور يتحول إلى تخاصم

وقد يشتد التحاور بين أهل النار حتى يبلغ درجة التخاصم بين الرؤساء المتبوعين والضعفاء التابعين لهم، فيلقي الضعفاء تبعة الكفر والضلال على رؤسائهم، ويطلبون من الله أن يضاعف لهم العذاب؛ وهكذا بتلاحق الفريقان حتى يدعو كل منهما على الآخر ويتبرأ منه ويرفض اشتراكه معه حتى في العذاب كما أنبأ القرآن بذلك في سورة (ص) قال تعالى للكفار الرؤساء إذا دخلوا النار يوم القيامة (هذا فوج مقتحم معكم) أي هذا فوج يتبعكم في الكفر والضلال مقتحم معكم النار رغم أنفهم، فيقول المتبعون: لا مرحباً بالتابعين ولا أهلاً، ونحن أبرياء منهم ومن أعمالهم "إنهم صالوا النار" أي محترقون بلهيبها مثلنا فيراجعهم الأتباع، ويرددون دعاءهم عليهم ويقولون "بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتم" العذاب لنا بإغوائنا وإغرائنا وتزيين ما قدمتموه لنا من العصيان والكفر "فبئس القرار" جهنم لنا ولكم، ثم أكد الله سبحانه أن ذلك الحوار الذى حكاه عنهم لهو حق سيقع يوم القيامة وهو تخاصم أهل النار كما قال تعالى في ختام الآية (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ).

([1]) هذا الحديث في تفسير آية النساء في البيضاوي ج٢.

ومن نماذج تحاور وتخاصم أهل النار أيضاً قوله تعالى في سورة سبأ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا القُرْآنِ وَلاَبِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ القَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ).

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين.

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجهل له أنداداً، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟

وهذه الآيات ظاهرة المعنى والحوار بين المستكبرين المتبعين والضعفاء التابعين كالحوار في الآيات السابقة والنتيجة هي تعذيب كل من التابعين والمتبوعين بأنواع العذاب في نار جهنم جزاء بما كانوا يعملون.

"الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين".

الصداقة في الحياة الدنيا نوعان: صداقة أساسها المحبة والمودة لله والأخوة في الدين، وهذههي صداقة المتقين الخالدة في الدنيا وفي الآخرة، والمقبولة عند الله وسيناديهم ربهم يوم القيامة (يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ

عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلاَأَنتُمْ تَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ* ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ[1]).

والصداقة الأخرى أساسها الكفر والمعاصي والشهوات كصداقة الظالم لمن آضله فعض بنان الندم كما سيأتي، وهذه هي الصداقة التى تنقلب في الآخرة إلى عداوة شديدة بين الحليلين كما قال تعالى في سورة الزخرف: (الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المُتَّقِينَ):

ولقد جاء في القرآن العظيم نماذج كثيرة مختلفة التعبير والتصوير، منها تخاصم وتدافع وتحاور وتراجع بين القرناء والأخلاء، ومنها تندم وتحسر وتمن من بعضهم، ومنها سرور وحبور من بعضهم، وهكذا من المشاهد الأخروية التي تنقل الإنسان من الحياة الدنيا إلى بعض مشاهد الحياة الأخرى، وكأنه يرى ويسمع أقوال المتحاجين ويكاد يرقب حركاتهم ومشاداتهم ونزعاتهم من خلال التصوير القرآني العجيب، والإبداع في الأسلوب، وسنذكر هنا ثلاثة نماذج لكل نوع من هذه المشاهد.

١ـ نموذج التخاصم بين القرناء يوم القيامة:ـ

قال تعالى في سورة الزخرف (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ* وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم

[1] تحبرون أي تسرون سروراً يظهر حبارة أي أثره على وجوهكم (الآيات في سورة الزخرف).

مُّهْتَدُونَ* حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ القَرِينُ* وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ).

في هذه الآيات مشهد حساب القرناء عند ربهم يوم القيامة مع شياطينهم سواء كانوا شياطين الإنس أم شياطين الجن، لأنهم عشوا عن ذكر الرحمن أي تعاموا عن القرآن وأعرضوا عنه "ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً" في الآخرة ويقيض له شيطاناً يلازمه ويصده عن السبيل الهادي إلى الحق في الدنيا وهو يظن أنه على هدى حتى إذا جاء ربه يوم القيامة للحساب تبرأ من قرينه وتمنى أن يكون بينه وبينه بعد ما بين المشرق والمغرب يعني بعداً شاسعاً لا يلتقيان بسببه وقال ذاماً لقرينه: "فبئس القرين" أنت لأنك سبب عذابي وشقائي في الآخرة.

قال تعالى للقرناء وشياطينهم (وَلَن يَنفَعَكُمُ اليَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ) التمني الذى تتمنونه من البعد إذ صح أنكم ظلمتم أنفسكم في الدنيا بالإعراض عن ذكر الله واتباعكم إغواء الشياطين وإضلالهم، ومن العدل أن تشتركوا أنتم وشياطينكم في العذاب كما كنتم مشتركين في أسبابه في الدنيا.

ونظر هذه الآيات في تخاصم القرناء قوله تعالى في سورة (ق): (قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُوَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ) أي قال الشيطان المقيض للكافر يوم الحساب ربنا ما أطغيته الخ، وهذا القول يشعر بأن الكافر قال: هو أطغاني فراجعه في قوله ورد عليه بهذا الرد.

قال تعالى لهما ولأمثالهما من القرناء (لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد) على الطغيان في كتبي المنزلة وعلى ألسنة رسلي (ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) فلا أظلم أحداً بغير ذنب، وليس لكم حجة بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب لهداية الناس وإرشادهم إلى الصراط المستقيم. فلا تطمعوا في أن أبدل وعيدي وإنذاري لكم، ولا تختصموا الآن في وقت حسابكم فلن ينفعكم التخاصم وكل منكم مجزى بعمله كما قال تعالى في سورة غافر (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ).

٢- نموذج من حسرة القرين وندامته يوم القيامة:-

قال تعالى في سورة الفرقان (ويوم يعض الظالم على يديه بقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ويا ليتني لم أتخذ فلانا خليلاً، لقد أضاف عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً).

والمراد بالظالم هنا عقبة بن معيط، وخليله هو أبي بن خلف وهو المكنى عنه في الآية بلفظ (فلان) وقصتها كما روى أهل التفسير تتلخص فيما يلي:

يروي أن عقبة قد صنع وليمة ودعا إليها الرسول صلي الله عليه وسلم فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين فنطق بهما. فلما علم بذلك خليله أبي بن خلف عاتبه على ذلك وقال له صبأت أي خرجت عن دينك فقال له: لا: ولكني استحييت من الرسول وقد امتنع

عن الأكل من طعامي وهو في بيتي حتى أشهد فشهدت له، فقال له أبي: لا أرضى منك إلا أن تؤذي محمداً بالقول وبالفعل، وترجع عن الشهادة فانقاد عقبة لما أمره به خليله، وتوجه إلى الرسول وهو ساجد في دار الندوة وآذاه واعتدى عليه ولم يلبث عقبة بعد ذلك إلا قليلاً حتى أسر يوم بدر فأمر النبي عليا فقتله، وأما أبي بن خلف فقد طعنه على كرم الله وجهه في المبارزة يوم أحد، فرجع إلى مكة ومات بها، وكان هذا عقابهما في الدنيا، وأما عاقبهما في الآخرة فيدل عليه موقف عقبة وهو يعض بنان الندم ويتمنى عدم فلانا (أبي) ويتحسر على إذعانه له في الدنيا وقد أضله عن الذكر بعد إذ جاءه وهو كلمة الشهادة التي فيها ذكر الله وكان الشيطان" أي الخليل المضل أو كل من تشيطن من جن وإنس كثير الخذلان للإنسان يغريه حتى يرديه ثم يخذله ويتركه ولا ينفعه.

ولذلك حذر الرسول من مصاحبة قرين السوء في الحديث المشهور ومنه:

مثل الجليس السوء كنافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة.[1]

وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر: "قرناء السوء شر من الجن" وفي الأثر: "كل خليل على شاكلة خليله فلينظر الإنسان من يخالل" وقال الشاعر:

([1]) الحديث كله في تفسير القرطبي لفظ مسلم وأخرجه أبو داود من حديث أنس.

تجنب خليل السوء واصرم حباله فإن لم تجد عنه محيصا فداره[1]

٣ـ نموذج من سرور القرين المؤمن يوم القيامة:ـ

قال تعالى في سورة الصافات "فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قال قائل منهم غني كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين؟ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمدينون؟[2] قال هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم قال تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين، أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين، إن هذا لهو الفوز العظيم".

وهذا مشهد من مشاهد أهل الجنة وهم يتساءلون فيما بينهم عما جرى لهم في الحياة الدنيا، قال قائل منهم إني كان لي قرين ينكر البعث والحساب والجزاء، ويستبعد إحياء الموتى بعد أن يصيروا عظاما وتراباً وهو الآن يعذب في نار جهنم بسبب كفره وإنكاره البعث، هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لأريكم بينهم هذا القرين السيء؟ فاطلع فرآه يعذب في وسط النار المؤججة. ثم قال القرين المؤمن لقرينه في النار تاله إنكدت لترديني فيما ترديت أنت فيه من العذاب بسبب إغوائك لي وإضلالك، ولولا أن عصمني الله وأنعم على بنعمة الهداية إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر لكنت معك الآن من المحضرين المعذبين. ثم استمر المؤمن في مخاطبة قرينه الكافر، يقول موبخاً له على إنكاره الحياة

(1) محيصا: أى مقراً.
(2) مدينون: أي مجزيون.

الآخرة: ألم تر أننا الآن أحياء بعد الموت مخلدون ومنعمون في الجنة لا نموت فيها إلا الموتة الأولى في الدنيا وما نحن بمعذبين مثلك في النار "لا تموت فيها فتستريح ولا تحيا حياة طيبة مرغوباً فيها؟ إن هذا الذي نحن فيه من النعيم في الجنة والنجاة من عذاب النار لهو الفوز العظيم.

وهذا جزاء القرين المؤمن القوي الإيمان الذى لم يكن معه ولا ضعيفاً تابعاً مقلداً لقرينه ينساق وراء العاطفة أو المجاملة لصديقة قرين السوء كما جامل عقبة خليله أبيا فأرداه وكانت عاقبته كفراً.

٤ـ مشهد آخر من مشاهد أصحاب الجنة وأصحاب النار:ـ

قال تعالى في سورة المدثر حكاية عن تسائل أصحاب الجنة وهم أصحاب اليمين عن أصحاب النار المجرمين.

"إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر؟ قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين، وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين".

هذا المشهد يصور أصحاب الجنة مع أصحاب النار يوم القيامة وتساؤل أصحاب الجنة عن سبب دخول أهل النار جهنم وتعذيبهم هذا العذاب.

وقد أجابهم أهل النار بأن أسباب دخولهم النار أربعة أسباب:

السبب الأول: أنهم لم يكونوا من المصلين أى لم يكونوا من المؤمنين الذين يصلون.

والسبب الثاني: أنهم لم يكونوا يطعمون المسكين يعني لم يكونوا يتصدقون.

والسبب الثالث: أنهم كانوا يخوضون مع الخائضين أي أنهم كانوا يشتركون مع أهل الباطل في باطلهم فيخوضون في شئون الدين الإسلامي وأمر محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبه واتهامه بالكهانة تارة وبالسحر أخرى.

والسبب الرابع: أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، يعني لم يكونوا يصدقون بيوم القيامة وهو يوم الدين أي يوم الجزاء على الأعمال في الدنيا.

أي الفريقين أولى بالضحك والاستهزاء؟

قال تعالى في سورة المطففين حكاية عن الفريقين يوم القيامة.

إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامرون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون، وما أرسلوا عليهم حافظين، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون، على الأرائك ينظرون، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون".

أى الفريقين أحق بالضحك والسخرية: الفريق الذى وصله يقينه وإيمانه إلى مشاهدة الحقيقة التي انكشفت يوم القيامة فدخل الجنة واستمتع بنعيمها المقيم، أم الفريق الذين كفروا وضلوا وكانت أعينهم في غطاء عن الإيمان بالله وباليوم الآخر وكانوا لا يستطيعون سمعاً فدخلوا النار وبئس المصير؟ لقد ذكرت هذه الآيات أحوال الفريقين في الدنيا والآخرة، وأنبأت بأن المجرمين المشركين من رؤساء قريش كانوا يستهزئون بالمؤمنين في الحياة الدنيا ويسخرون منهم، ويضحكون عليهم، وكلما مروا عليهم وهم في مجالسهم يغمز بعضهم بعضاً استهزاء بهم، وإذا رجعوا إلى أهلهم انقلبوا متفكهين ومتلذذين بما فعلوه بهم من ضروب الاستهزاء والضحك، وإذا رأى هؤلاء الكفار أحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا: إنهم لضالون باتباع محمد، لأنهم تركوا عقائد آبائهم وعاداتهم وأخذوا بعيبونها ويدعوننا إلى عبادة إله واحد "إن هذا لشيء عجاب" ولذلك أنكر الكفار أن يكون للمؤمنين مزية عليهم فليسوا ملزمين بسماع دعويهم واتباعهم وما أرسلوا عليهم حافظين ورقباء مسيطرين.

هذا ما قاله وفعله الكفار في الدنيا بالمؤمنين، فإذا جاء يوم القيامة وانتقلوا إلى الدار الآخرة تغيرت أحوالهم تغيراً عكسياً مضاداً، فأصبح المؤمنون من الكفار يضحكون وهم متكتون على الأرائك في الجنة ينظرون فيرونهم يعذبون في النار خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي، وإذا تحقق المؤمنون من جزاء الكفار بمثل ما كانوا يفعلونه بهم في

الدنيا قالوا: "إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم".

ونظير آيات المطففين آيات في سورة المؤمنون– حينما يقول الكافرون المعذبون يوم القيامة في نار جهنم "ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، قال أخسئوا[1]فيها ولا تكلمون، إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون".

هذه نماذج من الحوار والخصام في الحياة الآخرة تدل على تحقيق وقوعها وحدوث الحوار فيها كما حدث في الدنيا وإن اختلف النوعان من الحوار كما سبق بيانه وأن الحياة الآخرة آتية لا ريب فيها والناس فيها فريق في الجنة وهم المؤمنون، وفريق في النار وهم الكافرون، "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون"؟!

---

(1) أخسئوا: من خسأت الكلب إذا زجرته فانزجر.

الباب الثالث

في أسئلة القرآن وأجوبتها

لما كانت الأسئلة القرآنية وأجوبتها تعد بمثابة حوار بين السائل والمسئول كان من المناسب أن نلحقها بالحوار القرآني، وأن نفرد لها هذا الباب لتتم الفائدة:

وإن نظرة عامة إلى ما جاء في القرآن من أسئلة وأجوبة تبين لنا أن أكثر هذه الأسئلة كان موجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إما من المسلمين عن أمور يجهلونها تصادفهم في حياتهم بعد الإسلام، كيف يؤدونها وفق الشريعة الإسلامية الجديدة، وإما من اليهود والمشركين لاختيار نبوته مما يشبه أسئلة التحدي والتعنت ومن الأسئلة القرآنية في سورة البقرة وحدها سبعة أسئلة وهي قوله تعالى:

١- يسألونك عن الأهلة؟

والجواب: قل هي مواقيت للناس والحج.

٢- يسألونك ماذا ينفقون؟

الجواب: قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وبن السبيل.

٣- يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟

والجواب: قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل".

٤- يسألونك عن الخمر والميسر؟

والجواب: قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما.

٥- ويسألونك ماذا ينفقون؟

الجواب: قل العفو.

٦- ويسألونك عن اليتامى؟

الجواب: قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم.

٧- ويسألونك عن المحيض.

الجواب: قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن.

الإجابة عن هذه الأسئلة:

والإجابة عن هذه الأسئلة الموجهة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كلها من عند الله بوحى منه بواسطة جبريل عليه السلام والسؤال عن الأهلة:

يحتمل أن يكون المسئول عن تشكلات الأهلة جمع هلال وظهورها دقيقة مقوسة كالخيط الأبيض أو كالمنجل من الفضة، ثم تتزايد تدريجياً حتى تصير في منتصف الشهر بدراً كاملاً، تم تأخذ في التناقص تدريجياً حتى تعود في أواخر الشهر كما بدت في أوله، ثم تختفي ثم تبدو أول الشهر القمري وهكذا طوال العام الهجري.

ويحتمل أن يكون المسئول عنه بيان حكمة خلق الأهلة وفائدتها للناس.

ولكن الجواب قد حدد ما ينبغي أن يسأل عنه مما ينفع الناس جميعاً باديهم وحاضرهم، جاهلهم وعالمهم قال الله لنبيه "قل هي مواقيت للناس والحج" يعرفون بها أوقات صيامهم وفطرهم وأشهر حجهم المحدودة بأوقاتها، ويعرفون بها مدة حمل المرأة وحيضها وعدة طلاقها، ويعرفون بها مواعيد دفع الديون وسائر المعاملات.

وإذا قيل إن هذه المواقيت يمكن معرفتها بالأشهر الشمسية، قلنا إن هذه الأشهر مبنية على علم الفلك والرياضة الذي لا تتاح معرفته إلا لأهل الحضر، ولكن أهل البدو والأميين من أهل الريف يسهل عليهم

رؤية الهلال كلما بدا كما يسهل على أهل الأمصار من باب أولى من غير بحث في النتائج وغيرها.

أما الجواب عن سبب تغير الهلال وتشكله. فإنما هو يفتقر إلى دراسة هذه الأسباب من علوم نظرية في الفلك يحتاج إلى مقدمات طويلة لم يوحِ إلى النبي بشيء منها، لأن القرآن ليس مجالها فليس هو كتاب علم يعني بالجزئيات وإنما هو أكبر من ذلك، لأنه يعني بتربية الإنسان تربية اجتماعية عامة تصله بربه وبالمجتمع الإنساني.

وأما الجزئيات والبحث عنها فإنما تركها القرآن للعقول لتفكر فيها وتبحث عن أسبابها ونتائج تجاربها، وليظل القرآن مجال بحث جهابذة العلماء[1]على توالي العصور إلى يوم القيامة.

ومن أمثلة ذلك: البحث عن مومياء فرعون موسى الذي ذكر القرآن أنه ميت غريقاً، وأن الله أظهر بدنه ليكون عبرة لمن يأتي بعده كما قال تعالى في سورة يونس "وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين" إلى قوله تعالى:

"فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية".

([1]) جهابذة: مفردها جهبذ- بكسر الجيم والباء- وهو النقاد الخبير.

ولم تذكر هذه الآيات الجزئيات التاريخية فلم تذكر أسرة فرعون، ولا مكان جثته، ولا اسمه أو اسم أبيه مثلاً وإنما اقتصرت على عقاب الله له ولجنوده بإغراقهم في البحر ولم تعين هذا البحر الذي أغرقهم ونجا موسي ومن معه من الغرق فيه ومن هذا يتبين أن القرآن نزل ليخرج الناس من ظلمات الجهل وعبادة غير الله إلى نور الإسلام وعبادة الله وحده، مع الاعتبار بقصص الغابرين. أما التفصيلات المتعلقة بالجزئيات كمعرفة أسرة فرعون التي نشأ فيها، ومعرفة مكان جثته واسمه الحقيقي واسم البحر الذي غرق فيه، فكل ذلك موكول إلى البشر الذين أفسح القرآن لهم مجال البحث العلمي والتجارب والتطبيقات، وفرض النظريات التي قد تخطئ تارة، وتصيب أخرى كما هو واقع الآن بما يقوم به علماء الآثار وأساتذة الجامعات المصرية والأجنبية[1]من البحوث العلمية الحديثة للكشف عن جثة فرعون موسى في المتحف المصري بين موميات الفراعنة من الأسرة التاسعة عشرة وتدور بحوثهم حول الكشف عن جثة فرعون الذى مات غريقاً كما أنبأ بذلك القرآن، وربما تكشف لهم الأشعة الفاحصة عن الفرعون الذي مات غرقاً، ولكن هل الكشف عن فرعون الغريق يكون حاسماً عقلاً ودليلاً لا يقبل الشك على أنه فرعون موسى؟ ألا يحتمل أن يكون هناك أكثر من فرعون قد مات غرقاً؟ ولذلك لم تكن البحوث العلمية ونتائجها في قوة الحقائق القرآنية الثابتة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها تنزيل من حكيم

([1]) يشترك في البحث بالدراسة التي تجرى لأول مرة في التاريخ، فريق يضم عشرة من علماء المصريات والأشعة والتشريح من هيئة الآثار المصرية، وأساتذة وأطباء جامعات الإسكندرية، وميتشجن الأمريكية وتورنتو الكندية.

حميد. وليس معنى هذا القول ألا يجتهد العلماء في البحوث العلمية للوصول إلى كل ما يفقههم في الدين وينفعهم في الدنيا كما أرشد الرسول المسلمين إلى ذلك وترك لهم الحرية في أمور دنياهم بمناسبة تأبير النخل وإصلاحه إذ قال لهم: "أنتم أعلم بأمور دنياكم".

وجملة القول أن القرآن هو الأصل الحق الثابت الذي يرشد الناس إرشاداً كلياً مجملاً وعليهم أن يتدبروا آياته ولكن لا يحملونه على النظريات العلمية، بل النظريات هي التي ينبغى أن ترد إليه فما كان منها موافقاً له كان صحيحاً، وما جافاه منه أو بعد عنه، فليس علينا أن نتحمل الأسباب والمبررات لنحمل عليها تفسير القرآن لأن في ذلك قلباً للوضع الصحيح، وجهلاً بوظيفة القرآن العظيم.

وظاهر السؤال الثاني أن المسئول عنه هو مقدار ما ينفقونه من الأموال "ويسألونك ماذا ينفقون؟" ولكن الإجابة عنه كانت صريحة فيمن ينبغي أن ينفق عليهم "قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وبن السبيل" وهذا يدل على أن الأهم بيان الأصناف الذين يصرف لهم المال، أما مقدار المال الذي يصرف فهو متروك للمنفق على قدر سعته من المال كما يشعر بذلك قوله تعالى "ما أنفقتم من خير" ومعنى الخير هنا المال، ومن خير أي من بعض المال كما في قوله تعالى في جواب السؤال الخامس (قل العفو) كما سيأتي، وهؤلاء الأصناف الخمسة الذين بين جواب السؤال الإنفاق عليهم ذكروا في الجواب بترتيب طبيعي حكيم بدأ بالإنفاق على الوالدين وهم أحق بالإنفاق وختم

بالإنفاق على بن السبيل الذي انقطعت عنه أمواله وأهله ووطنه. وفي ذلك توثيق لروابط الأسرة التيهي اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإنساني وتوثيق للتكافل الاجتماعي، هذا إلى تزكية المنفقين وتطهيرهم وشفائهم من داء البخل طيبة نفوسهم بما أنفقت متجهة إلى الله راغبة وراضية مختارة في غير ضيق ولا تبرم، وآيات الإنفاق والحث عليه في القرآن كثيرة لأهميته وقيمته العظيمة في قيام المجتمع شعورياً وعملياً. وربطه برباط العطف والتعاون كرباط الأسرة المتعاضدة المتعاطفة.

وجواب السؤال الثالث عن القتال في الشهر الحرام كان قاطعاً لألسنة المشركين من قريش ولدعاية اليهود المضللة ضد النبي صلى الله عليه وسلم.

فقد جاء في عدة روايات أن آية القتال في الشهر الحرام نزلت في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه. وملخصها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد بعث عبد الله بن جحش مع ثمانية من المهاجرين قبل غزوة بدر الكبرى إلى بطن نخلة ليرصد بها قريشاً حتى يأتيه منها بخبر، فلما وصلت السرية إلى بطن نخله ومرت عير لقريش تحمل تجارة فيها عمرو بن الحضرمي وثلاثة معه، قتلت السرية عمرو بن الحضرمي: وأسرت اثنين وفر الرابع، وغنمت العير وكانت تظن أنها في اليوم الأخير من جمادى الآخرة، فإذا هي في اليوم الأول من رجب. ورجب من الأشهر الحرم التي تعظمها العرب، ويحرم فيها القتال، فلما قدمت السرية بالعير والأسيرين على الرسول صلى الله عليه وسلم قال: ما

أمرتكم بقتال في الشهر الحرام" وأبى أن يأخذ من العير والأسير شيئاً، ولام المسلمون أصحاب السرية على فعلتهم وقتلهم الحضرمي.

وعلى الرغم من موقف الرسول الكريم ومؤاخذة أصحاب السرية، وظهور خطئهم واعتذارهم فقد انتهزت قريش هذه الفرصة، وأشاعوا بأن محمداً وأصحابه قد استحلوا القتال في الشهر الحرام وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وصادفت هذه الإشاعات قبولاً عظيماً من اليهود الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر، فأطلقوا دعاياتهم كعاداتهم بأساليبهم الماكرة الخبيثة التى تظهر النبي وأصحابه بمظهر المعتدين الذين ينتهكون الحرمات ويدوسون المقدسات غير مبالين بغير مصالحهم الذاتية، وهكذا ملئوا الجو صياحاً ونكيراً على محمد وأصحابه، حتى نزلت آية: "ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه" والجواب بوحي من الله كسائر أجوبة الأسئلة هو "قل قتال فيه كبير". أي نعم إن القتال فيه ذنب كبير، ولكن أكبر منه "وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل".

وموجر ما تضمنه هذا الجواب أن القتال في الشهر الحرام كبير ولكن المشركين لم يراعوا الحرمات التي يتسترون بها ويتشدقون بألفاظها فهم الذين فعلوا كل كبير لصد الناس عن سبيل الله والإيمان به إذ كفروا به وحرضوا الناس على الكفر به، وكفروا بالمسجد الحرام وانتهكوا حرمته، فآذوا المسلمين ومنوعم عن دينهم ثلاثة عشر عاماً حتى

اضطروهم إلى الهجرة من بلادهم التى جعلها الله حرماً آمنا "وإخراج أهله منه أكبر عند الله" من القتال في الشهر الحرام، وفتنة الناس عن دينهم وحملهم على الشرك أكبر عند الله من القتل، ومع ذلك فقد ارتكب المشركون حرمة القتال في الشهر الحرام وحرمة انتهاك المسجد الحرام والبلد الحرام فكيف يلومون المسلمين على خطأ وقعت فيه سرية من غير تعمد للقتال في الشهر الحرام"؟!

لقد أبطل هذا الجواب ما كان يزعمه ويشيعه اليهود والمشركون فلم يبق لهم ما ينذرعون به من التحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام. وتبين موقف المسلمين في دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات ووجب على المسلمين أن يقاتلوهم حيث وجدوهم، لأنهم لا يزالون يقاتلونهم حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، كما أنبأ بذلك القرآن في الآية نفسها".

والسؤال الرابع عن الخمر والميسر وهما من عادات الجاهلية وتقاليدها، فإذا الجواب عنه لا يحرمهما تحريماً قاطعاً ولا يحللها إحلالاً حاسماً، وذلك لحكمة تربوية عظيمة وقاعدة أساسية من قواعد خلع العادات المستحكمة في النفوس بالرفق والتدرج لأن خلعها مرة واحدة فيه مشقة وصعوبة على النفس ربما يأتى بعكس المطلوب وينفر الناس من هذا الدين الحنيف النظيف، ولذلك كان الجواب من الحكيم الخبير "قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما" وفي قوله (إثمهما أكبر من نفعهما) إيحاء بأن تركهما هو الأفضل وهذه الآية تمهيد

لتحريمهما والخطوة الأولى لخطوات التحريم التي ذكرت في سورة النساء ثم في سورة المائدة التي حرمتهما تحريماً نهائياً جازماً "إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون".

والسؤال الخامس كالسؤال الثاني "ويسألونك ماذا ينفقون"؟ ولكن هذا الجواب مختلف عن جواب السؤال الثاني فالجواب هنا بوحي من الله أيضاً هو "قل العفو" وهو يبين مقدار ما ينفق من المال وهو العفو أي الفضل والزيادة على النفقة اللازمة للمنفق بلا إسراف ولا تبذير، ولكن الجواب في السؤال الثاني كان لوجوه المصارف وأنواعها.

والسؤال السادس عن اليتامى: "ويسألونك عن اليتامى"؟ وسبب السؤال عنهم هو تخرج المسلمين الأتقياء من خلط طعامهم بطعامهم وأموالهم بأموالهم بعد ما نزلت آيات التخويف والإنذار في سورة النساء وغيرها من أكل أموال اليتامى ظلماً، فعزلوا طعام اليتامى وأموالهم وعدلوا عن مسامهم بها ولو فسدت، فجاء الجواب من الحكيم الخبير بالاعتدال والتيسير، وبالتحري عن كل ما هو خير لليتيم وإصلاح لليتامى فلا حرج من مخالطتهم إذا تحقق الخير لهم، لأن اليتامى إخوان للأوصياء عليهم، وكلهم أعضاء في الأسرة المسلمة الكبيرة، والعبرة بالإخلاص وحسن النية والله يعلم المفسد من المصلح ولا يريد إعنات الأوصياء وتكليفهم بما يشق عليهم ولو شاء الله لكلفهم هذا العنت والمشقة ولكنه لا يشاء لأنه حكيم لا يريد إلا اليسر والخير لعباده قال

تعالى: جواباً عن هذا السؤال: "قل إصلاح لهم خير، وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح، ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم".

والسؤال السابع عن المحيض[1]" أي عن حكم مباشرة النساء في أثناء الحيض، والجواب بوحي من الله "قل هو أذى" أى أن جماع الحائض أذى وضرر يصيب الرجل والمرأة على السواء، ضرر صحى مؤكد، ولا يأتي معه حمل المرأة وولادتها وهو الغاية العظمى للمحافظة على التناسل وامتداد حياة الإنسان، ولذلك نهي الله عن مجامعة النساء في أثناء الحيض فقال تعالى "فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى قطهرن"، وهذا النهي يتفق مع الفطرة السليمة التي تعاف دم الحيض وقذارته ونجاسته فضلاً عن أضراره الصحية "فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله" أى فيمنبت النسل والحمل والإخصاب لامتداد الحياة وهو المكان الذي أمركم الله به وحلله لكم (إن الله يحب التوابين) من الذنوب أي بقبل توبتهم "ويحب المتطهرين" أى يرضى عن المتطهرين من الأقذار كاجتناب الحائض وإتيانها في غير مكان النسل، وهذا التشريع الإسلامي يمتاز عن غيره من تشريعات الأديان الأخرى بأنه تشريع وسط عادل لا إفراط فيه ولا تفريط، فلم يأمر الإسلام بإخراج الحائض من بيتها مدة حيضها واعتزالها في الطعام والشراب كما كان يفعل اليهود ونهى عن مباشرتهن أثناء الحيض كما كان يفعل الجاهليون

---

(1) المحيض: مصدر كالمجيء والمبيت ومعناه الحيض.

والنصارى فهو تشريع عادل مراعى فيه كرامة المرأة ومصلحة الزوجين والحرص على صحتهما ونظافتهما وحياتهما ونسلهما الذي هو الهدف الأسمى من الحياة الزوجية كما يشير إلى ذلك قوله تعالى في الآية التالية "نساؤكم حرث لكم" أي موضع حرثكم وذريتكم إشعاراً بأن فائدة المرأة الكلية ليست مقصورة على الشهوة بل هي كذلك لطلب الولد كما أشار إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة".[١]

من أسئلة اليهود للنبى صلي الله عليه وسلم

قال تعالى في سورة الإسراء "ويسألونك عن الروح"؟

روى البخارى ومسلم والترمذي عن عبد الله قال: بينا أنا مع النبى صلي الله عليه وسلم في حرث وهو منكيء على عسيب[٢]إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض سلوه عن الروح فقال: ما رأيكم إليه[٣]وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي صلي الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه بوحى إليه، فقمت مقامي فلما نزل الوحى قال "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" أي أن الروح أمر عظيم من أمر الله تعالى لا نعلم حقيقته إلا خالقه، وهذا جواب حق وصواب يؤيده مضى

---

(١) الحديث في هامش تفسير البيضاوي ج١ صفحة ٢٣٨.

(٢) العسيب جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها وكذلك الذي لم ينبت عليه الخوض من السعف.

(٣) ما رأيكم أي ما دعاكم إلى سؤال تخشون عاقبته بما تكرمون.

قرابة خمسة عشر قرناً من الزمان لم يستطيع العلماء الباحثون في العالم كله أن يصلوا إلى معرفة كنه الروح وحقيقته على الرغم من تخصيص دراسات واسعة دائبة لعلم الروح في أرقى الجامعات الأوروبية وغيرها، وكل بحوثهم ونظرياتهم تدور حول تحضير بعض الأرواح بالتنويم المغناطيسي وشبهه من المؤثرات على بعض الأشخاص ولكنهم لا يزالون عاجزين عن الأسئلة التالية:

١- ما هو الروح؟

٢-كيف يسلك في جسم الحي وكيف يخرج من جسم الميت؟

٣- هل يستطيع أمهر الأطباء أن يعيد الروح إلى الجسد بعد خروجه من الجسم؟

وإذا قيل إن بعض الأطباء قد رد الروح إلى الجسد بعد وفاة الميت بتدليك قلبه مثلاً، قلنا له: إن هذا ليس من قبيل رد الروح إلى الجسد بعد خروجه منه، وإنما هذا من قبيل تدليك القلب قبل فراق الروح للجسد مثل رج الساعة وهزها إذا توقفت قليلاً عن السير، ثم لا تلبث أن تعود إلى سيرها ما دامت سليمة لم ينزع منها شيء أن ينكسر فيها ما بعطل سيرها نهائياً.

وإذا ادعى رده الروح إلى بدن الميت فاسأله: أين كان الروح؟ ومن أين أتيت به؟ وكيف سلكته في قلب الميت؟ ومن هو الميت الذى

أحييته بعد موته؟ ومتى كان ذلك؟ وها هو ذا القرآن بين أيدينا يتحدى الأطباء جميعاً وغيرهم من أصحاب الرقي أن يرجعوا الروح إلى بدن الميت بعد خروجه منه أو يمنعوه من الخروج ومفارقة الجسم قال تعالى في سورة الواقعة:

"فلولا إذ بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون" إلى حركة نزعها من الجسم وبلوغها الحلقوم "فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين" وفي هاتين الآيتين تكرير للأداة (هلا) الدالة على التحضيض المؤكد والمعنى هلا تستطيعون أن ترجعوا الروح إلى البدن بعد بلوغها الحلقوم وهو مجرى الطعام؟ إن كنتم غير مدينين أي غير مملوكين لنا وغير منقادين لأمرنا وغير مجزيين كما تزعمون فارجعوا الأرواح إلى الأبدان إن كنتم صادقين في زعمكم الكاذب وأباطيلكم وتكذيبكم بآياتنا. ولن تستطيعوا ذلك مهما حاولتم، وإلى هذا أشار شاعرنا الحكيم إذ قال:

فـي المـوت مـا أعيـا وفـي أسـبابه　　　كـل امـريء رهـن بطـي كتابـه

وقال تعالى: "كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون".

وقوله تعالى تعقيباً على آية الروح "وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" يشعر بأن علم البشر قليل جداً بالقياس إلى علم الله، ويشعر بأن هناك

علماً غيبياً وأسراراً مخبوءة كعلم الروح وغيره، وعلى الإنسان أن يجد في البحث لعله يهتدي إلى ما لم يعلم.

وكذلك سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن موعد إتيان الساعة كما قال تعالى "يسألونك عن الساعة أيان مرساها" أي متى استقرارها وإتيانها؟ وكان الجواب بوحي من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم "قل إنما علمها عند ربي" لأن علم الساعة من الغيب الذي لا يطلع الله عليه أحداً، وما على المرء إلا الإيمان به وهو خير للناس جميعاً.

علم الغيب لله وحده

وعلم الغيب قد اختص الله به دون عباده "إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً" وما كان ينبغي في هذا العصر عصر تقدم العلوم وإنارة العقول أن يظل كثير من الناس ولاسيما المتعلمين منهم مخدوعين بالدجالين والمشعوذين، وفي القرآن آيات ناطقات بتفرده جل شأنه بعلم الغيب، ومنها قوله تعالى في سورة الأنعام "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو" ومنها سورة الجن قوله تعالى:

"عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً" ومنها في آخر سورة التغابن "عالم الغيب والشهادة" ومنها في سورة الحشر قوله تعالى: "هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة" ومنها في سورة النمل:

"قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله"

ومنها في سورة الأعراف والخطاب للرسول صلي الله عليه وسلم "قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون".

ومنها في سورة هود على لسان نوح عليه السلام مخاطباً قومه "ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب" ومفاتيح الغيب التي عند الله خمسة ذكرها القرآن في آخر سورة لقمان في قوله تعالى: "إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدرى نفس بأي أرض تموت" فهل بعد هذه الآيات البينات يليق بالمرء أن يلجأ إلى الدجالين من مدعي الطب والسحر وغيرهم ليكشفوا له الأستار، ويرفعوا الحجب عن الأسرار التي في ضمير الغيب، فيخدعوه بما يتراءى لهم من فراستهم فيه ومن حديثه حول مطلبه الشغوف به، فيخبروه بأخبار حول مطلبه، وسرعان ما يصدقها ويفسرها بما يوحي إليه الوهم وينتظر وقوع السعد أو النحس كما أخبره مدعي علم الغيب. فيقع في شركه، ويخسر ماله، ويخدش كرامته ودينه؟ ومن لم يؤمن بالآيات القرآنية الصادقة والمطابقة للواقع التي بينت ونبهت على أن الغيب لله وحده وعلى الناس أن يؤمنوا بذلك الغيب كاليوم الآخر وما فيه من حساب وحشر، وجنة ونار، فإني أحيله على آثار الفراعنة التي تشهد بإيمانهم باليوم الآخر، وليذهب إلى معابد

الكرنك والأقصر وأبي دوس بالعرابة المدفونة ليرى بعينيه تلك الصور والرسوم التيهي رموز ناطقة بإيمانهم باليوم الآخر وما فيه من حشر ونشر وميزان، ومن سلاسل طويلة بسحب المجرمون إلى الجحيم، ومن جنة ونعيم، وفاكهة كثيرة، ولذة ومتاع للمؤمنين، كما أن تحنيط أجسام موتاهم يدل على إيمانهم بإحيائها في الدار الآخرة.

وإذا كان الفراعنة الطغاة البغاة قد آمنوا بالغيب المشار إليه وسجلوه في معابدهم. كما رأيته عين اليقين، فلا يليق بالمعاصرين بعد مضى ألوف السنين من عصور الفراعنة أن يكونوا أضعف منهم تفكيراً وإيماناً بالغيب، فإن كثيراً من سنن الكون وقوانينه لا يزال سراً كامناً في ضمير المستقبل، وأن خزائن تلك الأسرار التى لا تنفذ لن تغلق أبوابها أبداً أمام العقول المفكرة، والبحوث العلمية الدائبة. وهذه المخترعات الحديثة للسلم وللحرب لم تكن من قبل شيئاً مذكوراً، ولم يكن يصدق بوجودها هؤلاء المنكرون للغيب حتى أبصروها في التليفزيون وسمعوها في المذياع (الراديو) وشاهدوها في الصواريخ والأقمار الصناعية وفي الحاسبات الالكترونية وما إليها من المخترعات التي كانت غائبة عن الأبصار.

أليست هذه المخترعات الإنسانية العجيبة من أقوى الأدلة على أن في الكون أموراً غيبية بكشف العلماء الباحثون عنها كل حين سراً من الأسرار، التي كانت محجوبة عن العقول والأبصار؟!

ومن الأسئلة التي وجهت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم سؤال متصل بالسؤال عن الساعة الذى تقدم ذكره وهو سؤال عن مآل الجبال ومصيرها يوم القيامة كما جاء في قوله تعالى من سورة طه: (ويسألونك عن الجبال).

والجواب كان بوحي من عند الله وهو "فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً".

وإسناد النسف إلى الرب يدل على شدة نسفها أى تفتيتها وتصييرها حبات صغيرة كالهباء المنثور وقد جاء في القرآن آيات كثيرة "تبين أحوال الجبال يوم القيامة"، ففي سورة الحاقة قوله تعالى: (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة).

وفي سورة الواقعة "وبست الجبال بساً، فكانت هباء منبثاً" أي فتتت حتى صارت كالسويق الملتوت (البسيس) وصارت هباء متفرقاً دقيقاً.

وفي سورة القارعة "وتكون الجبال كالعهن المنفوش" أي الصوف المصبوغ المنفوش فإذا كانت أحوال الجبال الضخمة هكذا يوم القيامة من الدك والتفتيت والنسف والتفريق فكيف تكون حال الأرض بعد نسف الجبال من فوقها؟ قال تعالى في هذه الآية "فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً" أي فيترك الأرض بعد نسف جبالها قاعاً أي خالية من البناء والنبات صفصفاً أي مستوية لا ترى فيها اعوجاجاً ولا أمتاً أي ولا

ارتفاعاً بسيطاً سواء رأيت الأرض بمجرد النظر أو بالقياس الهندسي، وفي سورة الزلزلة "إذا زلزلت الأرض زالزالها وأخرجت الأرض أثقالها" وفي سورة الواقعة "إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً" وقد وصفت آية المزمل حال الأرض والجبال يوم القيامة أيضاً كما في قوله تعالى: يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً ميلاً" أي رملاً منثوراً متفرقاً. وإذا كانت هذه حال الأرض والجبال يوم القيامة فكيف تكون حال الناس؟ أجاب القرآن عن هذا السؤال في آيات كثيرة منها قوله تعالى: في أول سورة الحج:

"يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ثروتها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد".

وقال تعالى في سورة المزمل في وصف يوم القيامة وهو له "فكيف تتقون يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به كان وعده مفعولاً".

فائدة:

سبب اقتران جواب سؤال الجبال بالفاء في قوله تعالى (فقل ينسفها إلخ) وعدم اقتران أجوبة الأسئلة السابقة بها هو أن جواب سؤال الجبال متضمن معنى الشرط لأن المعنى إن سألوك يا محمد عن الجبال فقل، لأن الله يعلم أنهم سيسألون الرسول عن الجبال، فأجابهم بالوحي

إلى الرسول قبل السؤال عنها، أما الأسئلة التي تقدمت فقد جاءت أجوبتها بعدها[1].

ومن أسئلة اليهود والمشركين للنبى صلى الله عليه وسلم سؤالهم عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين والإجابتين عنهما بوحي من عند الله في سورة الكهف مفصلة تفصيلاً ليس بعده ولا مثله بيان ولا تفصيل.

ومن أسئلة التعنت والتحدي للرسول صلي الله عليه وسلم سؤال أخبار اليهود أن يأتيهم بكتاب منزل من السماء جملة كما أبى به موسى عليه السلام، ليدل على صدقه أنه نبي مرسل من الله كما قال تعالى في سورة النساء:

"يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء"

وهذا ليس بعجيب منهم "فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم".

والمعنى أنه لا يستغرب من اليهود أن يسألوا هذا السؤال المحال، لأن تعنتهم وتحديهم كتعنت آبائهم وتحديهم لموسى عليه السلام، فقد سألوا موسى أكبر من هذا السؤال استحالة وجرماً فسألوه أن يريهم الله رؤية عين جهاراً وعلانية"؛ وهم يعلمون أن موسى وهو النبي المقرب من ربه لم يستطع أن يرى الله لأن تركيب بدن الإنسان وحواسه المحدودة

---

(1) من تفسير القرطبي م٥ص ٤٢٨٥ طبعة الشعب.

الضعيفة لا تطيق الرؤية لله الذى لا تحده حدود، وهم يعلمون أيضاً أن محمد صلي الله عليه وسلم صادق لأن نعته عندهم في التوراة والإنجيل.

وكذلك طلب واقترح رؤساء قريش المشركون مثل عتبة، وشيبة وأبي جهل، والنضر بن الحارث على النبي صلي الله عليه وسلم أن يسأل ربه أن يسير عن بلدهم مكة الجبال التي ضيقت عليهم، وليشق فيها أنهاراً كأنهار الشام وليبعث لهم من مات من آبائهم ليسألوهم عما يقول كجدهم قصي بن كلاب، لأنه كان شيخ صدق عندهم كما قال تعالى في سورة الإسراء "وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، إلى أن قالوا أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حت تنزل علينا كتاباً نقرؤه" وكان الجواب "قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً"؟!

وهذا الجواب يشتمل على تعجب من فرط كفر أهل مكة وعنادهم وطليهم المستحيل على البشر وما محمد إلا بشر يتبع ما يوحى إليه من ربه، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، وإلا فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بمثل ما طلبتم من هذه الآيات؟! وهل كان الرسل قبلي يأتون أممهم بكل ما يقترحون؟ وما أنا إلا رسول مثلهم وسبيلي سبيلهم في التبليغ، يوحي إلي كما أوحى إلى نوح والنبيين من بعده ولقد فصل ما أجمل في هذا الجواب في سورة الأنعام في قوله تعالى "ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس" كما اقترحوا "فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون" وجاء في سورة الحجر قوله تعالى

"ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون[1]".

فقد فصلت هذه الآيات ما أجمل في قوله تعالى "قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً" وزاد على ذلك تبياناً قوله تعالى في سورة الإسراء "وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها" والمعنى وما منعنا أن نرسل الرسل بالآيات المقترحة عليك يا محمد إلا تكذيب الأولين بالآيات التي اقترحوها على أنبيائهم فأهلكوا، وربما كذب قومك فأهلكوا مثلهم. ومن أمثلة الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها فأهلكوا آية، ناقة صالح عليه السلام التي عقرها قومه فأهلكوا كما تدل على ذلك آثار ديارهم بالحجر من بلاد العرب، وهي قريبة منهم يبصرونها في ذهابهم وإيابهم لعلهم يعتبرون.

(1) سكرت أبصارنا: يعني سدت عن الإبصار بسبب السحر، والسكر بكسر السين هو السحر.

الباب الرابع

فيما يتوقع أثارته من أسئلة عن بعض الآيات القرآنية:

إن بعض الآيات القرآنية تستوقف القاريء أمامها ملياً، وتثير في نفسه استفهامات وتساؤلات لجهله بالمراد منها أو لقصور فهمه وعلمه عن تدبرها وبحثها، فيقف متسائلاً حائراً بتطلب الجواب الشافي والبيان الكافي، ومن هذه الآيات قوله تعالى في سورة آل عمران.

"يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا، ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون".

والذي يتوقع من الأسئلة حول هذه الآية هو:

١- لماذا لم تغن كلمة الصبر عن كلمة المصابرة؟ والجواب أن الصبر غير المصابرة، لأن الصبر هو حبس النفس عن الجزع وتعويدها تحمل المشقات عند الشدائد وتحمل الأذى كالصبر على طاعة الله وعبادته وعلى منع النفس من الشهوات، ولكن المصابرة مفاعلة من الجانبين، ومعناها مقاومة الأعداء في الحرب حتى يغلبوهم بطول المصابرة وعدم اليأس، وتوقع الغلبة والفرج والنصر، لأن أطول المحاربين صبراً أشدهم قهراً، وأظفرهم نصراً وبين الكلمتين فرق في اللفظ وفي المعنى. لا يكتفي فيه بإحدى الكلمتين عن الأخرى.

٢- ألا تغنى كلمة "صابروا" عن كلمة "رابطوا" لأن المرابطة في الثغور وملازمة الجنود لها طويلاً لمنع الأعداء من اقتحامها لا تكون إلا بالمصابرة الطويلة واليقظة الدائمة؟

والجواب أن كلمة (رابطوا) لا تغنى عن كلمة (صابروا) لأنه لا يلزم من المصابرة المرابطة، وأصلها من رباط الخيل، ثم أطلق على كل ملازم لثغر من ثغور الوطن مرابط، سواء كان راكباً أو راجلاً في البر أو في البحر أو في الجو ومن هذا يتبين أن كل كلمة من الكلمات الثلاث قد وضعت في مكانها وضعاً محكماً متناسقاً ومتكاملاً بحيث لا يمكن حذف كلمة منها مع بقاء المعنى المقصود.

وتعقيب هذه الآية بقوله تعالى: (واتقوا الله لعلكم تفلحون) يشير إلى أن التقوى هي أقوى أسباب النصر والفلاح، وأنها سلاح المجاهد في سبيل الله الذي لا يفل. ولذلك أوصى بها الخلفاء الراشدون قادة الجيوش عند أمرهم بالجهاد، ومن أشهر وصاياهم وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص.[١]

تعقيب:

قال الفقهاء: المرابط في سبيل الله هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما. وهذا القول ينطبق على كل جنود في جميع ثغور بلادنا- سواء كانوا على قناة السويس أو البحر الأبيض المتوسط أو

---

[١] تراجع في كتاب الفدائيون العرب ونهاية إسرائيل، للمؤلف.

البحر الأحمر. وينطبق أيضاً على كل من يسكن في هذه الثغور وحده إذا كان من أهل القتال من غير أهله وولده كما حدث أيام تهجير الأسر المعرضة للحرب مع إسرائيل في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ.

روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رباط يوم في سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما فيها.

وفي صحيح مسلم عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان" الشيطان وروى داود في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كل الميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فنان القبر".

وفي هذا الحديث والذي قبله دليل على أن الرباط في سبيل الله أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت وتمتاز أعماله بنمو ثوابها وأجرها عند الله بعد موته بدون انقطاع إلى يوم القيامة:

ورباط يوم في شهر رمضان أعظم أجراً وأكثر ثواباً وإن لم يمت مرابطاً كما نص على ذلك حديث آخر[1] فما أعظم ثواب المرابطين في سبيل الله إذا صبروا وصابروا واتقوا القبائح والمنكرات.

ومن الآيات القرآنية التي توحي بأن أسباب النصر في الحروب ليست محصورة في إعداد الجيش والعتاد قوله تعالى في سورة الأنفال "وما النصر إلا من عند الله" وقوله تعالى في سورة البقرة "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله" كما وقع في غزوة بدر الكبرى فقد انتصر المسلمون على قلة عددهم وعدتهم على المشركين على كثرة عددهم وعدتهم كما قال تعالى في سورة آل عمران "ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة" إلى قوله تعالى "وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم" وكما قال تعالى في سورة الأنفال "وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم" ولا تتعارض هاتان الآيتان مع قوله تعالى "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" فإن إعداد الجيوش وتدريب الجنود على أساليب القتال واستعمال الأسلحة الحديثة من أسباب النصر في الحروب ولكن هناك أسباباً أخرى معنوية لا تقل عن الأسباب العلمية والمادية في كسب النصر وغلبة الأعداء تلك هي تقوية الروح المعنوية وذلك لا يتحقق إلا بالتوكل على الله والاستغاثة به كما استغاث به المسلمون في غزوة بدر فاستجاب لهم كما قال تعالى في سورة الأنفال: "إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين" أي متتابعين فرقة بعد أخرى، وذلك

(1) الحديث في تفسير القرطبي.

أهيب في العيون، وأرهب للقلوب، كما يشاهد في تتابع أسراب الطائرات المقاتلة التي تكون جسراً طويلاً وإمداداً مستمراً لجيوشها ومثل الطائرات في الإمداد المتواصل الفرق البرية والبحرية المتتابعة.

ولم يكن الإمداد بالملائكة إلا بشرى للمؤمنين ولتطمئن به قلوبهم كما يوحي بذلك قوله تعالى "وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ بوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان" فقد بينت هذه الآية سبباً معنوياً من أسباب النصر للمؤمنين ومن أسباب الهزيمة للكافرين وهو تقوية قلوب المؤمنين وقذف الرعب في قلوب الكافرين، وذلك كله من عند الله العزيز الحكيم، ولذلك استغاث النبي صلى الله عليه وسلم ربه حين التقى الجمعان يوم بدر وقال: "اللهم إني أسألك عهدك ووعدك" ثم خرج من العريش وعليه الدرع، وأخذ يحرص المؤمنين على القتال ويقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر" ورمى صلى الله عليه وسلم المشركين المقاتلين بقبضة من الحصى فلم يبق منهم أحد إلا دخل في عينيه منها شيء فعاقهم ذلك عن القتال فولوا منهزمين بإذن الله. وكذلك كانت كلمات "الله أكبر" الصادرة من قلوب المؤمنين المصريين وإخوانهم من العرب في حرب العاشر من رمضان، أقوى من القذائف النارية فأعانهم الله على تحطيم حصون إسرائيل الحصينة وعلى هزيمهم شر هزيمة "ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم".

ومما يغرى بعض الجنود على حب القتال شيئان، أحدهما: النصر أو الشهادة، والحافز عليهما الإيمان بالله وباليوم الآخر، والثاني: حب الغنيمة وهي أنفال العدو التي نزل فيها قوله تعالى "يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول" إلخ وقوله تعالى "واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير".

ومن وسائل تضرية الجنود واغرائهم بالقتال أن يقول القائد الذي بيده أمر الغنائم للجنود: من هدم كذا من الحصون فله كذا من المكافأة. ومن جاء برأس من رءوس العدو فله كذا، ومن جاء بأسير فله كذا. ومن بلغ مكان كذا فله كذا. ويؤيد هذا الإغراء في الحروب حديث بن عباس رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم: قال: لما كان يوم بدر قال النبي صلي الله عليه وسلم: من قتل قتيلاً فله كذا، ومن أسر أسيراً فله كذا.. الخ".[1]

وفي رواية عكرمة عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم: من فعل كذا وكذا وأتى مكان كذا وكذا فله كذا، فتسارع الشبان، وثبت الشيوخ مع الرايات، وهذا التحريض والإغراء يوحي به قوله تعالى: (يأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون بغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا).

([1]) الحديث في تفسير القرطبي.

ومن الآيات القرآنية التي تثير الأسئلة قوله تعالى في سورة المائدة: إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: "اتقوا الله إن كنتم مؤمنين".

وهنا يتساءل القاريء لهذه الآية قائلاً: أليس في صياغة سؤال الحواريين قلة ذوق إن لم تكن سوء أدب؟ أليس في قول عيسى لهم "اتقوا الله" إيحاء بقلة الذوق في صيغة سؤالهم؟!

والجواب عن هذين السؤالين هو ما يلي:

أما الجواب عن السؤال الأول فهو أن صيغة سؤال الحواريين من الأدب الرفيع السامي وذلك لأن قولهم "هل يستطيع ربك" معناه هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبك إلى طلبنا؟ كما تقول لمن تطلب إليه شيئاً، هل تستطيع أن تجيبني إليه وأنت تعلم أنه يستطيع ذلك، ولكنك تتلطف في السؤال إليه، لأن الحواريين هم أصفياء عيسى عليه السلام المؤمنون بالله وبرسوله كما قال تعالى: "وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون" ولا يعقل أن يكونوا جاهلين بقدرة الله حتى يسألوا عيسى عنها ويقولون "هل يستطيع ربك" أي عل بقدر بك. وإنما سبب سؤالهم هو ما ذكر في الآية التالية: "قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين".

وفي قولهم "وتطمئن قلوبنا" إيحاء بأنهم يطلبون إنزال المائدة لتكون دليلاً محسوساً عياناً جهاراً يضاف إلى دلالة علمهم وإخبارهم كما

قال إبراهيم عليه السلام "رب أرني كيف تحيي الموتى" وكان يعلم ذلك علم خبر ونظر ولكنه أراد المعاينة والرؤية التي لا يدخلها شك ولا شبهة. وما راء كمن سمع: ولذلك قال إبراهيم لربه لما قال له: "أولم تؤمن؟ قال، بلى ولكن ليطمئن قلبي" وكذلك قال الحواريون "وتطمئن قلوبنا".

وهناك إجابات أخرى غير هذه الإجابة وقراءة أخرى مذكورة في كتب التفسير كالقرطبي والبيضاوي، ولكني أفضل هذه الإجابة، لأنها لا تحتاج إلى تأويل أو تقدير محذوف فضلاً عن دلالتها على جودة صياغة السؤال وسمو أدبه. وأما قول عيسى للحواريين "اتقوا الله إن كنتم مؤمنين" فمعناه اتقوا واحذروا كثرة الأسئلة. التي قد تكون سبباً في غضب الله عليكم فيحل عليكم غضبه كما حل على ما سبقكم من الأمم التي اقترحت الآيات "إن كنتم مؤمنين" بالله بما جئت به، وقد جئتكم بما فيه غني لكم من الآيات المحسوسة والمعجزات الخارقة كإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله.

ولو كان في سؤال الحواريين جفاء وسوء أدب لما استجاب عيسى لسؤالهم وسأل ربه أن ينزل عليهم المائدة التي سألوها كما في قوله تعالى:

قال عيسي بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وأرزقنا وأنت خير الرازقين"[1]قال الله إني

([1]) المائدة: هي الخوان الذي عليه الطعام.

منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه.. إلخ فاستجاب الله جل جلاله لسؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابه للحواريين. وهذا يدل على أن الله قد حقق وعده لعيسى وأنزل المائدة حقاً، ولم يكن قول الله "إني منزلها عليكم" من باب ضرب المثل كما زعم بعض علماء التفسير، ويؤيد نزول المائدة تأكيد الجملة بأداة التوكيد (إن) وقوله تعالى "فمن يكفر بعد منكم" أي بعد نزول المائدة "فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين" وهذه سنة الله في كل من اقترح على الرسول آية ثم كفر بها كقوم صالح الذين أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين، وكذلك عذب الله من كفر بالمائدة بعد نزولها فمسخهم قردة وخنازير ليكونوا عبرة ثم أهلكهم بعد مدة قصيرة، ويضاف إلى تأكيد نزول المائدة قول ابن عمر: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون، وهذا هو الذي عليه الجمهور.[1]

ومن الآيات القرآنية التي تثير التساؤل عند قراءتها قوله تعالى في سورة المائدة:

"يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم، قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين".

([1]) من تفسير القرطبي بتصرف.

والتساؤل هنا هو كيف هو كيف يكون في أول الآية نهي عن السؤال عن الأشياء ثم يليه إباحة السؤال حين ينزل القرآن؟ والجواب عن هذا التساؤل أن سبب النهي هو كثرة الأسئلة للرسول صلى الله عليه وسلم فيما لا ينفع السائلين بل يسوءهم ويغهم ظهور ما يسألون عنه كما روى أنه لما نزلت آية "ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً" قال سراقة بن مالك: أكل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يجبه حتى كرر السؤال ثلاث مرات فقال له الرسول: "لا. ولو قلت نعم. لو جبت، ولو وجبت لما اتطعتم. فاتركوني ما تركتكم فنزل النهي في الآية عن كثرة الأسئلة الضارة وعن بن عباس رضي الله عنهما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يخطب وهو غضبان من كثرة ما يسألون عنه مما لا يعنيهم، فقال لا أسأل عن شيء إلا أجيب عنه، فسأله رجل أين أبي؟ فقال: في النار. وسأله آخر من أبي؟ فقال حذافة. وكان يدعى وينسب لغيره ولا شك أن إجابة هذين الرجلين على سؤاليهما تسوءهما وتغمهما، لأن أبا أحدهما في النار وأبا الآخر الحقيقي غير ما كان ينسب إليه، وكذلك لو أجاب النبي صلي الله عليه وسلم سراقة بالإيجاب لشق الحج عليه، وعلى جميع المسلمين ولما استطاعوا تأديته كل عام. وفي حديث رواه مسلم عن المغيره بن شعبة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله "كره لكم ثلاثاً: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال" وقال كثير من العلماء. المراد يقوله وكثرة السؤال التكثير من

السؤال في المسائل الفقهية تنطعاً وتكلفاً فيما لم ينزل على الرسول. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلعن من سأل عما لم يكن.[1]

وليس معنى النهي عن السؤال أن يمتنع المستفهم عن السؤال فيما يجهله من توضيح أمر ديني أو دنيوي نافع، ولكن المنهي عنه بالإضافة إلى كثرة الأسئلة هو أسئلة التعنت والتحدي، لا أسئلة التفقه في الدين وأسئلة التعلم التي أوحى بها قوله تعالى "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".

فالنهي إذا عن أشياء لم يكن بهم حاجة إلى السؤال عنها، أما ما دعت إليه الحاجة فالأسئلة عنه مباحة وهو المراد من قوله: "وإن تسألوا عنها حين بنزل القرآن تبدلكم" أبى تظهر لكم حين ينزل القرآن من تحليل أو تحريم، أو حكم إذا دعت حاجتكم إلى السؤال عنه أو إلى تفسيره كالسؤال عن عدة المرأة التي بئست من الحيض ومن الحمل، فإنها لم تبين مع عدة المطلقة ولا عدة الحامل ولا عدة المتوفى عنها زوجها فلما سألوا عنها نزل قوله تعالى "واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدلهم ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن" يعني فعدلعن ثلاثة أشهر كذلك.

فالأشياء المباح السؤال عنها في قوله تعالى "وإن تسألوا عنها" هي غير الأشياء المنهي السؤال عنها والمعنى وإن تسألوا عن غير الأشياء

([1]) ذكره الدارمي في سنده (تفسير القرطبي).

المنهي عنها فيما مست الحاجة إليه فاسألوا فذلك مباح[1]وعفا الله عما سلف من الأسئلة التي كرهها النبي فلا تعودوا لأمثالها. وهذا ما أميل إليه.

وقال عبيد بن عمير: إن الله أحل وحرم، فما أحل فاستحلوه، وما حرم فاجتنبوه، ونزل بين ذلك أشياء لم يحللها ولم يحرمها فذلك عفو من الله ثم تلا هذه الآية. وقول عبيد هذا تدل على أن العفو بمعنى الترك أي ترى الأشياء التي لم تحللها ولا يحرمها عفو من الله فلا تبحثوا عنه فلعله إن ظهر لكم حكمه ساءكم.

ثم ختمت الآية بتحذير من مثل ما وقع فيه من سبقهم من الأمم، كسؤال قوم صالح الناقة وسؤاله أصحاب عيسى المائدة، فقال تعالى "قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين" والمعنى قد سألوا رسلهم آيات مثل أسئلتكم ومقترحاتكم، فلما أعطوها، وفرضت عليهم كفروا بها وقالوا ليست من عند الله فأهلكهم الله بكفرهم والعاقل من اعتبر واذكر، ولم بتعنت في الأسئلة، ولم تسأل عن الأشياء التافهة التي تضايق المسئول وتصرفه عن بيان الأهم من الأمور.

---

(1) قال الجرجاني السكناية في (عنها) ترجع إلى أشياء أخرى غير الأشياء المنهي عنها كقوله تعالى: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" يعني أدم ثم قال "ثم جعلناه نطفة" في ابن آدم لأن آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين لكن لما ذكر الإنسان وهو آدم دل على إنسان مثله في تفسير القرطبي.

تحقيق إفساد بنى إسرائيل في الأرض

قال تعالى في سورة الإسراء "وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً.. إلى قوله تعالى "فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً.. إلى قوله"وإن عدتم عدنا.." والمراد بإفساد بنى إسرائيل في أرض الشام وبيت المقدس وما جورهما هو مخالفتهم أحكام التوراة وعلوهم واستكبارهم، وبغيهم وطغيانهم، واستطالتهم وعدوانهم.

ولقد اختلف علماء التفسير في تحديد مرتى إفساد بني إسرائيل كما اختلفوا في تعيين عباد الله أولى البأس الشديد الذين سلطهم الله عليهم فجاسوا خلال ديارهم وطافوا بين مساكنهم يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين. فقال بعضهم إن العباد أولى البأس الشديد هم أهل بابل وكان عليهم بختنصر في المرة الأولى وهذا ما أميل إليه للأسباب التالية:

أولاً: أن أهل السير والأخبار- أجمعوا على أن المرة الأولى من إفساد بني إسرائيل كانت في عهد إرمياء عند قتلهم "شعباً" حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه، كما قال بن عباس وغيره، وأن عباد الله اولى البأس الشديد الذين سلطهم الله على بني إسرائيل هم أهل بابل وكان

عليهم بختنصر المجوسي الذي دخل بيت المقدس هو وجنوده وقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد الأقصى.

ثانياً: ما ورد في حديث حذيفة المرفوع لما سأل الرسول عن بيت المقدس كيف خرب وهو من أجل البيوت وقد بناه سليمان بن داود عليهما السلام؟!

قال الرسول لحذيفة: إن بني إسرائيل لما عصوا الله وقتلوا الأنبياء سلط عليهم بختنصر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سنة، وهو قوله "فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباد لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً" فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان في بيت المقدس.[1]

ثالثاً: إن اليهود أنفسهم قد ذهبوا إلى أن المبعوث الأول هو يختنصر وكان في زمن إرمياء عليه السلام وقالوا إن زمن تخريب بيت المقدس كان سنة ١٩ من حكمه.[2]

ثم إن الله الرحي رحم بني إسرائيل فأنقذهم من الأسر والعذاب ولما عادوا إلى أرض الشام وكثر عددهم وأموالهم عادوا إلى سيرتهم الأولى فأفسدوا في الأرض المرة الثانية التي كان بينها وبين المرة الأولى

---

(1) راجع الحديث الطويل في تفسير القرطبي صفحة ٣٨٣٨ طبعة الشعب مجلد ٤.
(2) من تفسير الألوسي.

أكثر من مضى أربعمائة سنة كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: "ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً" وسبحان الله هذه عادة اليهود حتى اليوم كلما نما عددهم وعدتهم الحربية، عادوا في الأرض فساداً ولكن الله سيسلط عليهم عباداً له أولى بأس شديد يقتلونهم ويخرجونهم من ديارهم مهما طال الأمد وكان وعد الله مفعولاً، وكان إفسادهم في المرة الأخرى حين قتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام. وأيد ذلك الثعلبي واستخلصه من أقوال المؤرخين الكثيرة إذ قال: والصحيح عندي من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال: لما رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتلوا يحيى. بعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له "خردوس" فسار إليهم بأهل بابل وظهر عليهم بالشام وقتل منهم آلافاً من رؤسائهم وغلمانهم وسبيهم وأزواجهم وكاد يفنيهم حتى أقروا بأنهم قتلوا يحيى بن زكريا بسبب ما كان ينهاهم عن أمور كثيرة من سخط الله وأنه كان نبياً منهم، ما عصى الله قط طرفة عين ولاهم بمعصية وهذا ما أوحى به قوله تعالى "فإذا جاء وعد الآخرة" والمراد بالآخرة المرة الآخرة من الإفساد (ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً) والمعنى فإذا وعد عقاب المرة الآخرة بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ليسوءوا وجوهكم بالسبي والقتل حتى يظهر أثر الحزن على وجوهكم وقيل المراد بالوجوه سادتهم يعني ليذلوهم: وليدخلوا المسجد مخربين كما دخلوه أول مرة وليتبروا أي ليدمروا ويحطموا ويهلكوا مدة علوهم وظفرهم بكم تتبيراً فظيعاً.

وإذا بكون الإفساد في المرتين قد وقع قبل الإسلام المرة الأولى في عهد أرمياء والمرة الثانية في عهد يحيى عليهما السلام.

حوار حول تفسير كلمة (عباداً لنا) في آية الإسراء:

قال صاحبي إن مرئي إفساد بني إسرائيل كانتا بعد ظهور الإسلام وحجته أن إضافة العباد إلى الله في القرآن تدل على أنهم عباده المؤمنون مثل قوله تعالى في سورة إبراهيم "قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة" وفي سورة الزمر "قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم" وقوله: "فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه".

وإذا تبين أن عباد الله أولى البأس الشديد الذين بعثهم الله على نبي إسرائيل حين أفسدوا في الأرض هم المؤمنون فلا جرم أن يكون إفسادهم في المرتين بعد ظهور الإسلام. أما المرة الأولى من الإفساد فكانت في صدر الإسلام عندما حاول اليهود قتل النبي صلى الله عليه وسلم ونقضوا عهده وانضموا إلى كفار مكة في حربه كما وقع في غزوة الخندق (الأحزاب) فكانت عاقبتهم قتل يهود بني قريظة وإجلاء يهود بني النضير عن المدينة.

والمرة الثانية من الإفساد هي قتل وتشريد شعب فلسطين ونسف ديارهم واغتصاب أرضهم ونهب أموالهم واعتداؤهم على أرض العرب المجاورة لفلسطين.

قلت لصاحبي: حفظت شيئاً وضاعت منك أشياء:

إن عباد الله ليست خاصة بعباده المؤمنين: فمن عباده المضافة ليه الكافرون كما في قوله تعالى في سورة الفرقان: "ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل"؟ فقد أضيف لفظ عباد إلى ضمير لفظ الجلالة وهؤلاء هم العباد الضالون خاصة ومن عباده الكافرون والمؤمنون، كما في قوله تعالى في سورة سبأ "قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له" أي يوسع الرزق لمن يشاء من عباده الكافرين والمؤمنين ويضيق الرزق على من يشاء منهم، وكذلك قوله تعالى في سورة الزخرف "ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا" أي جعلنا القرآن نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا غير المهتدين عصاة أو مشركين.

وكذلك قوله تعالى في سورة الزمر "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" قال بعض أجلة العلماء المحققين إن قوله تعالى "يا عبادي" خطاب للكافرين والعاصين وإن كان المقصود الأول هم الكفار لمكان القرب ولسبب النزول، فقد أخرج بن جرير وابن مردودبه عن بن عباس أنه قال: إن أهل مكة قالوا: يزعم محمد صلى الله عليه وسلم أنه من عبد الأوثان ودعا مع الله إلهاً آخر، وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له فكيف لسلم ونهاجر وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس ونحن أهل شرك؟! فأنزل الله "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا

تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً"[1]إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عباد الله وإن كثر ذلك في المؤمنين يا صاحبي إن قوله تعالى "عباداً لنا" مثل قوله (عبادنا) لأن عبادنا إلى "نا"تدل على معنى اللازم أي عباد لنا ومثله (عبادي) لأن القاعدة النحوية في باب الإضافة[2]أنه لا فرق بين غلام زيد وغلام لزيد من حيث الملك والاختصاص لأن الإضافة على معنى اللام معنى غلام زيد غلام لزيد.

وقياساً على ذلك يكون (عباداً لنا) مثل عبادي أو عباد الله أو عباده أو عبادنا يعني ليست خاصة بعباد الله المسلمين دون الكافرين إذ الكل عباد الله.

وإذا يكون إفساد بني إسرائيل مرتين لا يتحتم أن يكون بعد ظهور الإسلام، بل إن طبيعة اليهود تحتم أن يكون إفسادهم منذ خلقهم الله على الأرض، ويؤيد ذلك إجماع أهل السير والأخبار واليهود أنفسهم بان بختنصر وجنوده هم الذين عزوا بني إسرائيل في عهد إرمياء عليه السلام، وكان عهد إرمياء قبل ميلاد المسيح بأكثر من أربعمائة سنة عندما أفسدوا في المرة الأولى وقتلوا "أشعيا" ووقعت المرة الثانية من الإفساد والغزو في عهد عيسى عليه السلام بعد رفعه وقتل يحيي بن زكريا يا صاحبي إن إفساد بني إسرائيل في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم وبعد ظهور الإسلام لهو إفساد ثالث يدل عليه قوله تعالى في الآية التالية للآية

---

(1) من تفسير الألوسي.

(2) من حاشية الخضري.

السابقة من سورة الإسراء "وإن عدتم عدنا" يقول الله لنبي إسرائيل وإن عدتم إلى الإفساد بعد المرتين عدنا إلى عقابكم.

ويؤيد هذا قول قتادة: فعادوا فبعث الله عليهم محمداً صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية بالصغار وروى عن بن عباس وقال القشيري: وقد حل العقاب ببني إسرائيل مرتين على أيدي الكفار، ومرة على أيدي المسلمين، وهذا حين عادوا فعاد الله عليهم

هذا يفسر أن عباد الله يشمل الكفار والمسلمين الذين بعثهم الله على بني إسرائيل وكذلك أفسد الإسرائيليون اليهود في عهد هتلر إفساداً رابعاً كادوا يضيعون بلاده بسبب تغلغلهم في معظم مرافق الرايخ مما دفعه إلى قتل الألوف منهم حتى فر من نجا منهم إلى فلسطين وغيرها وبعد نحو خمسة عشر عاماً احتلوا فلسطين بعد حربهم مع العرب سنة ١٩٤٨م إذ قاسموا الشعب الفلسطيني بلادهم ثم أخرجوا أكثرهم منها وقتلوا شبانهم ودمروا مساكنهم ودفعهم طمعهم الذى لا حد له إلى احتلال بعض الأراضي العربية من مصر وسورية والأردن، وهذا يعد إفساداً خامساً عادوا إليه بعد طردهم من ألمانيا في الأربعينات من السنين من القرن العشرين فعاد الله عليهم بأن بعث عليهم عباداً له أولى بأس شديد من مصر وسورية وسائر العرب فقتلوا منهم الألوف وحطموا حصونهم الحصينة في صحراء سيناء وفي الجولان بالشام في حرب العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ الموافق السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م.

وربما يدفع إسرائيل غرورها وطمعها إلى حرب خامسة ضد مصر وسورية إذا لاحت لها بارقة أمل في غفلة العرب، أو تفرقهم، أو ضعف استعدادهم للحرب كما لاحت لهم الفرصة فيهم سنة ١٩٦٧م.

ولكنهم واهمون، فقد استيقظ العرب جميعاً واتحدوا ولديهم من الأسلحة الحربية والاقتصادية ما يزلزل كيانهم وكيان الآخرين من دونهم، ولن تغني عنهم كثرة الأسلحة التي جمعوها والأموال التي استمدوها من خلفائهم ما دام العرب متحدين، وبالإيمان معتصمين، وعلى التدريب للحرب مستمرين.

وسيواصل العرب مع هذا خطوات السلام على أساس من العدل:

حتى تحرر فلسطين والأراضي العربية من الاحتلاف اليهودي الإسرائيلي، وإلا فلن يكون هناك سلام، ولن تكون إلا الحرب العوان[1]على قوى البغي والعدوان.

وعلى الباغي تدور الدوائر، ويومئذ يفرح العرب المظلومون ينصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

([1]) العوان كسحاب من الحروب التي قوتل فيها مرة.

الفهرس

الباب الثاني

الباب الثالث

الباب الرابع